فريق
متميزون
E-BOOK

يوميات عربية

عبدالله صديق

أن تفكر في فلسطين

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

أن تفكر في فلسطين

يوميات عربية..

الكاتب: عبد الله صدِّيق

أن تكون مغربياً، فأنتَ الأبعد غرباً، الحاملُ في وجدانكَ أثراً من جينات موروثة عن أسلاف وصلوا إلى هنا، بعضهم مرّ، وآخرون مكثوا.. ابتنوا لهم بيوتاً، تتابعوا حتّى صارت البيوت المفردة حَيًّا، يُنسَب إليهم، هو (حَيّ المغاربة).

ظلّ الأمر على هذه الحال، إلى أن وصل الغرباء زرقُ العيون وسودُها، مُدجَّجين بالبنادق والأكاذيب والنصوص المقدّسة بالتأويل، فهدموا الحَيّ..

جيناتكَ الآن في مواجهة بنادقهم ونصوصهم، ورواياتكَ متسلّلة خلف خطوط رواياتهم.. يسافر فيكَ المكان، يستغرقكَ الوقت، ويسحبكَ المشهد إلى داخله، والموقف إلى فكرته، فتجد نفسكَ تتعلّم، تتعلّم كيف تفكّر، وكيف تفهم بعض المعنى الذي يكون في المعنى كله، حين تفكّر في فلسطين وأنتَ فيها.

اليوم الأوّل

مشهد ١ / أُفتِّتُ الوقتَ، وتنتظرني الحقيبةُ

للذاكرة ألاعيب تُعجِز الإدراك. الآن وأنا أمارس بمعدة فارغة لعبة تفتيت الوقت كقطعة خبز يابسة أمام عصافير جائعة، في انتظار ختم جوازي في مطار الملكة علياء، أتذكّر ما رواه لي أخي الأكبر عن ورطة الاسم العائلي التي لم تُكلِّفه تفتيت الوقت فحسب، بل والذاكرة معه. فقد قام المُحقِّقون في شرطة مطار لوس أنجليس بتفكيك ذاكرته، وجعلوه بأسئلتهم يعيد تركيبها أمامهم من جديد. تشابهت عليهم الأسماء، فارتابوا في كنيته، لمجرّد ذلك، سألوه عن كل شيء لم يخطر بباله أن ذاكرته ستحتفظ بأثر عنه، سألوه عن اسم مدرسته الأولى، عن أسماء أصدقاء الصبا، عن معلّم الدِّين في فصله الثالث، وعن رَقْم منزل الجَدَّة من جهة الأمّ.. عن أحلامه وكوابيسه سألوه. وحين استيقنوا براءته، قدّموا له كوب ماء، واعتذروا لصديقته الأوروبية التي كانت تنتظره خلف باب غرفة التحقيق. أمّا أنا، فسُئلتُ في موقفي هذا سؤالاً واحداً لمرّات كثيرة:

- ما اسم والدتكَ؟

من فرط ما أعادوا طرحه بين سؤال وسؤال، وجدتُ أني نطقتُ اسمها مرّات كثيرة في زمن قصير، نطقتُهُ جواباً عن سؤال شرطيّ حدود، لا نداءً عليها مثلما كنتُ أفعل كلّما عدتُ ركضاً من ملعب الحارة طالباً منها كوبَ ماء. كنتُ الوحيد من أبنائها مَنْ يناديها باسمها، كنتُ أفعل ذلك، لأنها كانت تحبّه منّي، ومنذئذ صرنا صديقَيْن، لا أُمَّاً وولداً لها. الآن أنطق اسمها في موقف المشتبه به، لتشابه في الأسماء.. وحدها بَرَكَةُ اسمِ أُمِّكَ يمكنها أن تُخلِّصكَ من ورطة كهاته، ورطة يكون فيها اسمكَ على قائمة سوداء، تحتفظ مخابرات المطارات في العالم بنسخة عنها.

مرّت ساعتان، ثمّ سلّموني بعدها الجواز باللّطف الأوّل نفسه.. سلّموني الجواز، وتناسوا طلبي كوبَ ماء، شكرتُ الشّرطيّ، وأسرعتُ في نزول درج طويل نحو بساط الحقائب، لأجد حقيبتي هذه المرّة في انتظاري.. عكس المرّات السابقة كلها التي كنتُ ألعب فيها لعبة تفتيت الوقت في انتظار الحقيبة.

مشهد ٢ / ذاهب إلى فلسطين

ساعتا المطار الضائعتان أَلزمَتاني الركض حدَّ اللُّهَاث نحو باب الخروج، حيث يُفترَض أن يكون في انتظاري شخص ما. ركضتُ وأنا يائس من العثور عليه بعد التأخير كله الذي حصل. وعلى إيقاع ركضي، كانت تركض في مخيّلتي الاحتمالات المترتّبة عن ذلك كلها.. كيف سأدبِّر ما تبقّى من الليل في مدينة أزورها للمرّة الأولى؟ أين سأجد محلّ صرافة في هذا الوقت المتأخّر، وقد صرتُ

خارج المطار؟ والأدهى كيف أستعيد من جديد خيط الاتّصال المنقطع مع مَنْ يُفترَض أنه سيرافقني إلى الضّفّة الأخرى؟

في الركض تُحرِّر مخيِّلتكَ أفكاراً لا يُحرِّرها الليل في أصفى ساعات الذهن، أو تُطلقها طفرةُ الأدرينالين في حالات الرهبة العالية.. ركضتُ لأنه لم يكن عليّ أن أُفوِّت ثانيةً واحدة من الزمن، كي ألحقَ الموعد مع الشخص المُفترَض.. "ألستَ تبالغ بعض الشيء؟ فلا يعقل أن مَنْ ينتظركَ في المطار سيغادر وهو يعرف رَقْم الرحلة وساعة وصولها، حتماً سيفكِّر في تمشيط قاعات الانتظار قبل أن يفكّر في الانصراف".. "هذا كله بسببكَ أنتَ!.. نعم، أنتَ"!! على جواز سفركَ تأشيرة أردنية، ولسانكَ يستطيع أن ينطق كلمة فندق؛ فلماذا أجبتَ شرطي الجوازات حين سألكَ: إلى أين تذهب؟ بالقول الصريح: إلى فلسطين.

الاسم: عبد الله، اسم الأُمّ: رقيّة، قادم: من المغرب، ذاهب: إلى فلسطين.

مشهد ٣/ عبور في عمّان

عند مخرج المطار، كانت أنفاسي المتسارعة تُركِّز أنظار مَنْ بالمكان عليّ.. وكانت، لحسن الحظّ أيضاً، دليل مَنْ ينتظرني إليَّ، أمّا مخيّلتي، فكفَّت عن تحرير الصور والأفكار في اللحظة التي انتبهتُ فيها إلى شخصٍ يخطو نحوي مُصوِّباً نظرَهُ إليّ.. أخذتُ نَفَساً عميقاً، وأفرغتُ رئَتَيّ من الهواء المحتبِس فيهما.. ولوَّح هو لي من بعيد.. تقاربنا وتصافحنا..

- أنتَ عبد الله؟..

- إذنْ أنتَ رائد فارس الذي ينتظرني، والرائد ليس يكذب أهله.. ويشقى بانتظارهم.. (تبسّم رائد)، خفتُ أن تيأس من الانتظار ذلك الوقت كله، وتظنّ أني لم أصل..

- ما كان لتتوجّس، فنحن، يا صديقي، قد احترفنا الانتظار، بعد أن تعوّدنا عليه منذ سبعين سنة..

من المطار توجّهنا إلى الفندق في سيّارة السفارة الفلسطينية بعمّان. في مطعم الفندق، سأجالس مَنْ كان رائد قد استقدمهم من رحلات سابقة على رحلتي، عرفتُ من بينهم، مسرحياً من مصر، وروائياً مغربياً، وشاعرة من المغرب أيضاً، كان لي معها مشهد قبل يومَيْن، كانت حانقة عليّ، متّهمة إيّاي بالضلوع في مؤامرةِ نَعْتِها في مَطويّة إعلانية بأنها "صوتٍ شِعْرِيٌّ نسائيّ". تبادلْنا ابتسامَتَيْن، وتصالحنا، بعدها انفضّ الجمع، وانصرف كلٌّ إلى غرفته، بعد الاتّفاق مع رائد على موعد في صباح الغد، للتّوجّه مجتمعين إلى المعبر.

مشهد ٤/ يوم مقداره سبعون سنة

وصولاً بالباص إلى المعبر الأردني، توافد ضيوفُ معرض فلسطين الدولي للكتاب، ممّنْ سيعبرون مثلي إلى (دولة فلسطين).. كنّا أكثر من عشرة أشخاص،

عرباً وفلسطينيّيْن، أكثرهم مثلي يعيشون التجربة للمرّة الأولى.. أنهى الجميع ختمَ جوازاتهم، فلمّا حان دوري، عادت حكاية الاسم من جديد، وصرتُ أنتقّل من مكتب إلى آخر، وأكرّر الإجابة عن سؤال اسم الأمّ، مضافاً إليه هذه المرّة سؤالٌ عمّا جرى لي في المطار.. لم يكن لجماعة الوفد الثقافيّ أن تتحرّك بواحد ناقص، فشاركتْني هذه المرّة التوتّر نفسه الذي عشتُهُ مفرداً في المطار.. مرّ وقت ليس بالقصير، وفي لحظة نُودي عليّ لاستلام الجواز، فبدا كما لو أنهم اتّصلوا أخيراً بمخابرات المطار، واستوثقوا من الأمر، فأطلقوا سراح الجواز، وحرّروا أعصاب الرفاق.

انتهت إجراءات التسجيل والختم، وانطلق الباص بالمجموعة نحو جسر الملك حسين.. فهمنا من رائد أن العَدَّ العكسي لزمن الوصول إلى الحاجز يضعنا في سباق مع الزمن، سباق يُربِك الأعصاب، ويضغط عليها، فكل تأخُّر في الوصول إلى المعبر الإسرائيلي قبل العاشرة من صباح هذه الجمعة، سيعني العودة إلى الفندق من جديد، والانتظار حتّى صبيحة يوم الاثنَيْن لتكرار المحاولة، كل تأخّر سيعني ضياع يومَيْنِ كاملَيْن، سيُضافان إلى يوم فلسطيني طويل، مقداره سبعون سنة، يوم تأخّر الأشقّاء في الوصول، فضاعت بلاد بأكملها.

مشهد ٥/ على مسافة الصفر

ما إن عبر بنا الحدود الأردنية، حتّى صار الباص يسير ببطءِ مَنْ يمشي بقَدَمَيْن في حقل ألغام.. وصلْنا الحاجزَ العسكري الإسرائيلي.. على مسافة ظلّت تتضاءل حتّى صارت أقلّ من متر واحد.. اقترب الكائن المدجّج بالسلاح، فصارت المسافة صفراً، متأبِّطاً سلاحه تفحّص وجوهنا من وراء زجاج النوافذ، وجوه لحظتئذ واجمة.. ألسنة تبلع الريق والكلمات، والصمتُ المخيِّم أجوف، غريب، وبارد.. وثوانٍ تسير مصطفّة بطيئة فوق حقل عقارب سامّة.. العدوّ الكريه الذي تعوّدنا أن نراه عبر شاشات التلفزيون في بيوتنا البعيدة، ماثل أمامنا الآن.. حالة شبيهة بارتباك الحواسّ حين ترى على الطبيعة كائنات متخيَّلة، بعدما تعوَّدت أن تراها في الصور أو اللقطات الفيلمية.. المشاهدةُ حَيَّة ومباشرة.. الأحجام كاملة، الألوان حقيقية، وزيّ الحرب الذي هزم جيوشنا الباسلة ماثلٌ للعيان، نراه على مسافة الصفر.. مسافة الاشتباك البصري، توازنُ رعبٍ غير مفهوم، رعب متبادَل بين رشّاش أوتوماتيكي وجينات موروثة عن الأسلاف.

تحت سلطته صرْنا الآن.. له أن يقرّر أن نعبر أو نعود من حيث أتيْنا.. له أن يُفرِغ مخزن رشّاشه في صدورنا لأدنى حركة، ستقول حكومتُه غداً إنها كانت هجومية، استوجبت دفاعاً شرعياً عن النَّفْس.. كذلك فعلوا في آخر حادثة عرفها المعبر حين قتلوا قاضياً بدم بارد، زاعمين أنه حاول تجريد جندي من سلاحه.

هاكَ أيّها العالم الأبله.. ابلع الأكاذيب.

تحرّك الباص من جديد نحو محطّة التفتيش ومراقبة الجوازات، وحده رائد مَنْ بدا أنه يفهم اللعبة مع الإسرائيلي، وينجح فيها، لكنْ، دون أن يجود علينا ببصيص

من تَرَفِ الاطمئنانِ المُسبّق إلى نتيجة اجتياز هذا الصراط.

مشهد ٦ / زمن المحطّة

للمحطّة زمنان، نَفْسيٌّ تتشطر لحظاته كصخور فضائية مقذوفة في الفراغ، عليكَ أن تلاحقها واحداً واحداً، لتستعيد بها قدرتكَ على الاستيعاب، وفيزيقيٌّ يتحكّم فيكَ داخل مساحة مشطورة إلى مسافات، في كل مسافة تُفلِتُ شطرا منكَ، وتستعيد آخر.. وتظلّ تسأل نفسكَ: هل ستكون أنتَ هو الشخص نفسه في نهاية هذا الخطّ الصّراطيّ؟ هل ستكون؟ بعد أن جرَّبت أخيراً أن تكون كأيّ فلسطيني مُهَجَّر بالوراثة يجرّب أن يزور أرضه، فيتمّ تفتيشه من حذائه المنزوع إلى رأسه الذي يُراد له أن يُطأطِئ، لأن الجميع تعبوا من عناده.. وحين يحاول ذلك، يجد نفسه يدخل أرضَه بتصريح تحت بنادق غرباء وصلوا من أماكن بعيدة.. غرباء، حتّى لونُ التراب والنخلة العربية المعرِّشة في التّلّة القاحلة يستغربان وجودهم، ويُنكرانه.

في طابور أمام شبَّاكيْن للفحص الأمني، اصطفّ قبلي شيخ سبعيني، ذكّرني زيُّه بصور فلسطينيّي النكبة في الوثائقيات التي أرخَت بالأبيض والأسود للهاربين والمهجّرين، وهم يعبرون فوق جسر أللنبي في الثمانية والأربعين، من الضّفّة الغربية للنهر إلى الشّرقيّة منه. تابعتُ الرجل الذي كان يستعين بعكّاز قُدَّ من شجرة زيتون، هل تراه عائداً من عمّان بعد أن زار أصهاره القاطنين بها؟ أم بعد أن أجرى فحصاً طبّيًّا في مستشفى من مستشفياتها؟.. تابعتُهُ وأنا أحاول أن أقبض على الثعالب العجوزة الجريحة التي تركض الآن في مخيّلته، هل يتذكّر حين كان يعبر النهر في صباه مع أبيه قبل وصول الغرباء؟ هل يفكّر وهو على مسافة قصيرة من نهاية العمر أنه سيموت دون أن يشهد يوماً في زمن المحطّة لا يكونون فيه هنا؟.. أيّ وصفٍ ينبغي لتلك الغُصَّة التي شاخت معه، وسيرحل بها؟ أيّ عالم عاهر هذا الذي يُسلِّم مصير زيتونة سبعينية العمر متجذِّرة في الأرض لِشاقُور، صُنع نصله في أوروبا، وزيّن مقبضه بأساطير الأرض الموعودة المقدّسة!

مشهد ٧ / أعطاب، وأعطاب مضادّة

في هذا اليوم النّيسانيّ، وفوق هذه البقعة الأكثر انخفاضاً في كوكب الأرض تحت مستوى البحر؛ كانت الشمسُ حزيرانيةً لافحةً، واطئةً ومتواطئة بمَكْر مع الواجهات المعدنية التي كانت تمتصّ أشعَّتَها وتضاعِف حَرَّها.. وكعادتي في أيّ طابور، أجدني قبل بلوغ دوري قد كوَّنتُ اختياراً معيَّناً للشّبّاك الذي أرجوه، فأصير أحسب حساب الترتيب والزمن والمسافة، كي أعرف عند أيّ شبّاك سأنتهي،.. على أحد الشّبَّاكيْن كانت هناك جندية بملامح أوروبية، وعلى الآخر كانت ملامحُ الجندي عربيةً واضحة.. تَحَقَّقَ ما رجوتُ، فسار الشيخ السّبعينيّ نحو الشّبّاك الثاني، وتحرَّكت أنا نحو الأوّل.

هوذا أنتَ!.. الآن أُعاينكَ، يا مشهد الجندية الإسرائيلية الشقراء، الأوروبية الملامحِ، الزرقاء الحَدَقَتَيْن، المنسدلة الشَّعْر، المنتصرة في الحرب.

في شبّاكها المرتفع فوق قاعدة، تجعل رؤوسنا في مستوى طاقة فيه، تستلم منها جوازات الواقفين، عادت الهواجس في مخيّلتي إلى الركض، أيّة صور، يا ترى، تعبر الآن في مخيّلة غير راكضة لهذه الجندية الواقفة على رؤوسنا؟.. صورةِ صفّ من قليلي الحيلة وطالبي المساعدات؟ أم صفٍّ من الأعداء؟ أم صفٍّ من الأسرى؟ ...

واقفاً، ودون حاجة إلى الركض، انطلقت مخيّلتي في تحرير أفكار وصور راكضة كثعالب في حقل سنابل، تظهر وتختفي.. لم تقبض ذاكرتي إلا على واحدة منها، بدت مثل ثعلب جريح تخلّف عن قطيعه.. نَمْ في قبركَ المجهول يا مَنْ شَقَقْنا من اسمكَ لفظة فريدة، لا توجد في لغات العالم.. نَمْ، يا حبيبي.. نَمْ، يا عنترة.

وضعتُ جوازي بين يَدَيْها عبر طاقة الشّبّاك، سحبتْه، وبادرتْني بتحية إنجليزية.. لم أجبْ، كرَّرَتْها، فرددتُ بحركة من رأسي.. فالمكان الذي كان يحشر المئات، ويضغطهم كسردين في علبة قصدير، ثمّ يقطرهم واحداً واحداً، لم يكن ليسمح للكلمات أن تكون مفهومة، أو مسموعة حتّى.. كان الصياح وإشارات الأيادي والسّبّابات الآمرة بالتّقدّم أو التراجع هي لغة المحطّة.. تصفّحت الجنديةُ الجوازَ ورقة ورقة، وعلى وجهها ابتسامة مصطنعة، لم أكن بعد قد أدركتُ برنامجها الاستعماليّ عند مجنّدين، يقضون ساعات عملهم في تفحُّص الأوراق والصور، والوجوه التي تقطر من عيونها كراهية الضحية للجلاد.. بأيّة أرواح يعود هؤلاء المجنّدون إلى بيوتهم آخر النهار؟.. وأيّة أعصاب إنسانية يحملونها معهم وهم يعدّون عشاءَهم، وهم يشاهدون فيلمَهم المفضّل، وهم يحكون لأطفالهم حكاية ما قبل النوم؟ وكيف يستفرغونها من أجل تَحمُّل أعصاب جديدة تنتظرهم في اليوم الموالي؟.. وبأيّة أعصاب مضادّة يخرج هذا السَّيْل البشري وقد تكدّس لساعات فوق هذا الصراط المقيت، بما فيه من انتظار ومكابرة على تحمّل إهانات المعاملة المتعجرفة لجنود الاحتلال؟؟

عادت الجنديةُ إلى اصطناع الابتسامة إيّاها، وطفِقت تسألني عن جنسيّتي، والغرض من قدومي، وإن كنتُ أحمل سلاحاً معي؟! وهل أنوي تنفيذ عمليات

تخريبية؟!! بعد ذلك سلّمتْني الجواز وهي تسألني سؤالها الأخير: ما اسم والدتكَ؟.. سألتنيه وهي تكاد تسبقني إلى نطقه، وكأنّ أحداً ما أخبرها بحكاية الاسم.

مشهد ٨ / عناد بعناد، وعطب بعطب

تجتاز الفحص الأوّل، وتسير نحو طابور ثانٍ، يمضي بكَ إلى بوّابة، تُدخِلكَ إلى الجزء المسقوف من المحطّة، من هنا تنفصل حقيبتكَ عنكَ.. يسحبونها إلى مسار، ويقودونكَ إلى آخر، ولا يبقى من رابط بينكما سوى شفرة باركود.. رَقْم متسلسل هو بالنسبة إليهم قيدٌ يشدّ أحدكما إلى الآخر، وهو بالنسبة إليكَ أنتَ وحقيبتكَ رابطكما حتّى لا تَضِلّا الطريق إلى المخرج الواحد الموعود، فأيّكما هذه المرّة، سيسبق الآخر إلى نقطة الوصول؟؟.. وأيّكما سيكون عليه أن يمارس لعبة تفتيت الوقت في انتظار الآخر؟؟ تفتيته هذه المرّة كقطعة لحم عفنة أمام مناقير نسور مفترسة.

في مدخل هذا الجزء من المحطّة يصير الاصطفاف في الطابور منتظماً أكثر من سابقه، ربّما لأنه يرتبط آلياً برنّة جهاز السكانير الذي يعبر منه المسافرون، كما يصير أطول، متلبِّسا بالفرجة. مشهديَّة كاملة؛ مَدْخَلُها ومَخْرَجُها ومُخْرِجُها هذا الجهاز البارد، المتيقّظ، المتحفّز، اللئيم، الذي يبدو كأنه واحد منهم، يُشبِههم في الوجوم الكريه والعجرفة المقيتة. أمامه يخلع الجميع أحزمتهم، ويفكّون سيور أحذيتهم، يراقبون لحظة مرور الواحد منهم عبره، يلتفتون إليه، ويتنبهون إلى رنينه الحادّ المتقطّع حين لا يُحسِن عابرٌ ما إفراغ هيئته جيًّدا من أيّ معدن ما، فيمسك الجميع وجوهَهم عن أيّ تعبير مقروء.. ويتنفّسون صعداء مكتومة حين يمرّ العبور بسلام. لتستلم الجميعَ بعد ذلك أيادٍ خبيرةٌ مدرّبة على فحص الأجساد من أسفلها إلى أعلاها، في استسلام يعطّل ردّة الفعل على الحميمية المبخوسة. فالجميع هنا تحت سلطتهم وداخل لعبتهم التي لا تفهم منها سوى أنهم لا يريدونكَ هنا، أنتَ غير الفلسطيني الداخل عبر الأردن، لا من تلّ أبيب، الحامل جوازاً لم تسمح لهم اتّفاقيات (السلام) أن يختموه.. لا يريدون أن تدخل وتخرج وأنتَ الشخص نفسه خالياً من الأعطاب، يريدونكَ أن تتعب وتشعر بالإهانة، وتتورّم أقدامكَ من الانتظار في الطوابير المتتابعة، يريدونكَ أن تحني هامتكَ، وتخلع حزام سروالكَ، وحتّى السروال إن بدا لهم مُريباً. يريدون أن يطفئوا نور المشهد حتّى لا ترى عيناكَ هذه الأرض التي تبدأ حدودها من هنا.. حيث لون التراب ممتقِع، وسَعَف النخلة معرش في التّلّة القاحلة.

مشهد ٩ / يكذبون يكذبون

تصل بعد حاجز الجهاز إلى صالة تتضاءل فساحتها أمام المئات المكتظّة، بها عشرة شبابيك، مفتوح منها ثلاثة فقط، عليها شرطيات بلباس مَدَني، هي سبع كذبات إذنْ تشهدها عيون الخَلْق المحشور هنا. ميزة الصالة الوحيدة أن بها بضعة كراسٍ على جوانب جدرانها، ميزةٌ لا يمكن أن تفكّر في الاستفادة منها، لكثرة ما ترى من العجائز والشيوخ والأمّهات الصغيرات المرضِعات.

كان على رائد أن يجمَعَنا من جديد حتّى يتأكّد أن أحداً لم يتخلف عن المجموعة، وأن الجميع قد عبر من امتحان السكانير بنجاح، ليعود ويُفرِّقنا على الشبابيك الثلاثة المفتوحة، فيبدأ شوط جديد من أشواط الصراط.

منتصفَ الصالة بين حشود العابرين، واقفاً في آخر الطابور، التفتُّ ورائي، فرأيتُ على الجدران بوسترات دعائية ضخمة، عليها ختم وزارة السياحة في (دولة إسرائيل)، أحدها لمسجد الصخرة، وآخر لكنيسة القيامة، وثالث لبيت العدل. في اللحظة نفسها، وفي مجال التفاتتي نفسه، كانت هناك مجموعة من الأفارقة، بدا لي من هيئتهم أنهم حجّاج مسيحيون، وسائح ياباني مع رفيقته، يتطلّعون جميعاً إلى البوسترات. بهاتَيْن القطعَتَيْن اكتمل المشهد، الكذبة الملصقة على الجدار، والمكذوب عليهم القادمون من بعيد.

مشهد ١٠ / أكثر من مشكلة واحدة

بدأت الطوابير تتحرّك ببطء، الوقوف يطول، والأجساد تتعب، والأحذية تضغط على الأقدام المنتفخة من الدم المحتقن فيها. استغرق الانتظار ساعة أخرى. ذلك كله والجندية الإسرائيلية القصيرة القامة، (سأقولها وليسامحني ربّ الجنود!)، والدميمة الوجه، تروج وتجيء، بين شبابيك الشرطيات الثلاث ومكتب في طرف الصالة، مستبقية أصحاب بعض الجوازات في ركن خارج الطوابير، بدا مفهوماً أن الأمر يتعلّق بالحالات التي يستشعرنَ فيها مشكلة ما، ولا يقدرنَ على الحسم فيها، فيطلبنَ أن يُجرى فيها تدقيق معمَّق بالعودة إلى قاعدة بيانات، أو أن يأخذنَ فيها تعليمات خاصّة من الضابط المجهول المتربّص في المكتب إيّاه، كذلك فعلوا مع حالَتَي صديقَيْنا حسن ومازن.

حين وصلتُ أمام الشّبّاك، وعلى وشك أن أُقدّم جوازي إلى الشرطية، لمحتُ جندي المخابرات العسكرية ذي الملامح العربية، وقد سبقني إلى الشّبّاك وهو يرافق مع جندي ثانٍ رجلاً يمسك بيد ابنته الصغيرة، كان الرجل في الخمسين من عمره، يرتدي قميصاً أنيقاً، ويضع ربطة عنق فاخرة، ويطوي بدلة على ساعده، وصل الثلاثة إلى الشّبّاك وهم منخرطون في حديث، يتبادلون فيه ابتسامات ودودة. فحصت الشرطيةُ الجوازَ، والثلاثة مستمرّون في حديثهم، دقائق، ثمّ استعاد الرجل ذو الهندام الأنيق جوازَه وجوازَ ابنته، وعبرا معاً من بوّابة نحو صالة الحقائب. التفتُّ إلى رائد الذي كان ورائي، فوجدتُهُ قد تابع المشهد، نظرتُ في عينَيْه، فهمس لي أن الرجل وجه بارز من وجوه السلطة الوطنية الفلسطينية.

(مشكلة!.. هناك أكثر من مشكلة واحدة!!..).

مشكلة الجندي الذي لا يفعل ذلك إلا وفق برنامج استعمالي، يُرغِمه على الانتقال من الغطرسة إلى التّودّد.

مشكلة الرجل ذي الهندام الأنيق الذي يدرك في قرارة نفسه ما يخلِّفه فوزُه بهذه المعاملة في نفوس أبناء شعبه، (وعلى عينك، يا عابر)، ويؤلمه - لا شكّ - عجزه عن تمكين الجميع منها.

مشكلة الواقفين في الطابور وهم يرون ابن جِلْدتهم يتجاوز الصفوف، ويعبر، تاركهم وراءه يجابهون عدوّاً لهم وله، يذلّهم كيف يشاء.

مشكلتي أنا كانت صغيرة ومؤقّتة.. بضع دقائق مضافة إلى زمن الانتظار.

مشهد ١١ / ماتت الحقيبة

مرّت الدقائق الخمس، وانتصبتُ أمام الشرطية، سلَّمتها الجوازَ، فحصَتْه، وأدخلتْ بياناته في حاسوبها، ثمّ ألصقتْ فيه شية عليها رَقْم متسلسل، وفي الأخير، دسَّتْ بين صفحاته بطاقة تقوم مقام التأشيرة.

عبرتُ من حاجز مُدَوْلَب إلى صالة الحقائب، لأجد مسكينتي هناك، هالني الحال التي وجدتُها عليها، كانت طريحة الأرض، مبقورة الأحشاء، تشتَّتَ ما بداخلها بسبب اللعين الذي فتّش فيها، ولم يُحسِن شدَّ سَحَّابها، فأعطَبهُ.

ماذا يمكن أن نُسمّي حقيبة معطوبة السَّحَّاب، لا تقدر أن تشدّ على متاع صاحبها في جوفها، سوى أنها حقيبة ميتة.

تألَّمت لمصير الحقيبة، وطفقتُ أعالج عطبها بحزام سروالي، لاعناً المعبر وجنوده، وحواجزه، وطوابيره، وشياته. شاهداً على قَدَرها الأخير الذي انتهى بها إلى هنا، على هذه الحال، مفكِّراً في شقيقاتٍ لها يلقينَ المصير نفسه كل يوم. حقائب تحمل من شرق النهر إلى غربه ملابس وألعاباً للأطفال، وأكسسوارات وزينة للنسوة، وتبغاً ومعسَّلا للرجال.

مرّت ساعة انتظار أخرى، ثمّ أفرجوا عن آخر فرد في المجموعة. خرجْنا من مبنى المحطّة، لنجد للهواء طَعْماً أصفى في رئاتنا. انقضّ المدخّنون على سجائرهم، واقتعد موجوعو الظهور رصيفاً في الموقف الخارجي للباصات، قبل أن يلتئم الجمع من جديد للانطلاق نحو أريحا.

سائرين نحو باب الباص، كان الرفاق يجرّون حقائب ثقيلة، أمّا أنا، فكنتُ أحملُ حقيبة ثقيلة وميتة.

مشهد ١٢ / حديث ربّ الجنود

لم أرَ من قبل جمالاً لأرض قاحلة جرداء مثل ذاك الذي كان يتراءى لي من خلف زجاج النافذة في الباص، جمال عارٍ من زخرف الطبيعة الذي تعوّدتْ حواسُّنا أن تشترط وجوده، كي تقول عن منظَره: كم هو خلّاب! جمال لا يتطلّب وصفه ألفاظاً جيّاشة، هو جيّاش في ذاته. بقدر ما لا يغري العين بظاهره؛ بقدر ما يفيض أمامها بروحانية باطنة.

كأن (تبارك اسمه)، ربّ إبراهيم ونسله، مبدع الأحراج المدارية والغابات الاستوائية ومشقِّق العيون والأنهار في أقاليم الأرض، وجاعل الجنّات من نخيل وأعناب، لم يزدْ هنا على الصبغة الأولى للمكان أيّة محسّنات بديعية، ليمنحه بكْراً، بدائياً، غير ذي زَرْع، إلى خليله النّبيّ.. "لِنَسْلِكَ أُعطي هذه الأرض".

في نقطة من الطريق، تنتصب لافتة معدنية ضخمة، تُؤشّر على حدود المنطقة (ألف)، وهي المنطقة التي تضعها اتّفاقيات أوسلو تحت سيطرة السلطة الفلسطينية، فلا تدخلها قوّات الاحتلال، فيما تسمح للفلسطينيّيْن بالاستغلال المَدَني للمنطقة (باء)، مع الإبقاء عليها تحت سيطرتها الأمنية، أمّا المنطقة (جيم)، فلا يقربها الفلسطينيون رغم وقوعها كسابقَتَيْها داخل حدود الخطّ الأخضر. كان مكتوباً على اللافتة، بالعربية والعبرية، عبارةٌ تحذِّر الإسرائيليّيْن من الوصول إلى هنا، أو دخول المنطقة، خشيةً من تعرّضهم للخطر.

أخيراً هناك مَنعٌ يطالُهم، يرسم لهم حَدًّا، ويُخوِّفهم من تجاوُزه، علامة تُذكِّرهم أنهم "الغرباء"، وأن هذا الجزء من الأرض الموعودة لم يحنْ أوانُ سرقته بعد، فإن وطئتُمُوه، فالموتُ أوّل المرحِّبين.. هكذا سمعتُ ربَّ الجنود يتحدّث إليهم بين سطور العبارة المكتوبة في اللافتة.

مشهد ١٣ / مضافة السجين

توقّف الباص بنا عند مبنى رسمي، مضافةٌ فسيحة، مكيَّفة الهواء، مفروشةٌ بأرائكَ وثيرة، ومزيّنة بأثاث تراثي فلسطيني. عُلِّقَت على جدار فيها صورتان، إحداهما لأبي عمّار، وأخرى أكبر وأعلى قليلاً للرئيس أبي مازن.

هنا تستقبل (دولةُ فلسطين) ضيوفَها الرَّسميّيْن، تُعِدُّ لهم استراحة، يتخلّصون بها من تعب المعبر وضغطه النَّفْسيّ، وتُقدِّمُ إليهم قهوةً عربية، وقارورة ماء بارد، قبل الانطلاق من جديد نحو الداخل.

من هذه النقطة تبدأ (الدولة) على بساطة إمكانياتها، في إثبات أنها معلَنة وموجودة، تخوض معركة الرموز، وتواجه إصرار الإسرائيلي على الفتك بما تبقّى من الرموز الفلسطينية المزعجة له، في مقابل تكريس رموزه المزيّفة.

هكذا بدت لي ضيافة الاستراحة، رمزية تريد أن تمحو من نفوس زوّارها ذلكَ الشعورَ الذي كان سلوكُ الإسرائيليّيْن يمعن في ترسيخه لدى العابرين، من فلسطينيّيْن وأجانب. سلوكٌ كانت رسالته الظاهرة تقول: (لا يجب أن تنسوا، أننا نحن مَنْ يتحكّم هنا، وأنتم، أيّها الأجانب، فحين لا تأتون من مطار بن غوريون، فإنكم ستجدوننا هنا في معبر الملك حسين، نُذيقكم فيه الذّلّ، كي تكفّوا عن تسميته معبر الكرامة).

كانت المحبّة تفيض من مُحيّا كل واحد من الشباب في المضافة، تشي بسعادة حقيقية تغمرهم وهم يخدموننا بكل أريحية، سعادة من رمزية يستشعرونها في وصولنا إليهم، شبيهةٍ بتلك التي تتدفّق من عيون سجين يزوره في المعتقل أخٌ له في الدم، أو نظيرٌ له في الإنسانية، زيارةٌ يعرف الفلسطيني منها أن لسجنه باب يفتح - ولو بصعوبة - يدخل منه أهله ومُحبّوه، فيدخل بوصولهم هواء جديد، يعرف منها أيضاً أن صاحب زيارته قد قاسمه بها بعض أوجاعه التي تبدأ من المعبر، ولا تنتهي عنده.

فهل تبقى من ذريعة، بعد هذا، عند مَنْ يَصِمُ تلبية دعوة فلسطينية لزيارة الأرض المحتلّة بأنها تطبيع؟!

مشهد ١٤ / ما فعله المعبر، وأكملتْه المستوطنة

جميلاً كان الوصول إلى أريحا، المدينة الفلسطينية الأولى التي يحلّ بها القادم من المعبر، (جيريكو) كما يسمّيها الكتاب المقدّس، ويعني بها مدينة القمر، سأزعم أن القمر مدين لها، بسبب أنها بقعة الأرض الأكثر انخفاضاً تحت سطح البحر، حيث يحطُّ أطولُ شعاعٍ نازلٍ من القمر.

أرض خصيبة خفيضة، وبحر مالح قريب، وقمر مشعّ حين يأتي، هي ذي أريحا. عبرناها سراعاً، مُكمِلين الرحلة نحو رام الله.

في الباص، سَرَتْ روح لطيفة، وصار أفراد الوفد يتبادلون أحاديث منتظمة، كأن الذي بينهم صداقة قديمة، لم يكن للأمر من تفسير عندي سوى أن تجربة المعبر قد وحّدتْنا جميعاً، حين عرّضتنا بدون استثناء للضغط والشعور بالمهانة والغيظ، مُخلِّفة مزاجاً متكدِّرا، خفَّتْ حِدَّته تدريجيًّا، وخالطه شعورٌ بانتصار رمزي على مَنْ كان بِوُدِّهم ألا نعبر، ليزول نهائياً من حرارة الاستقبال في المضافة، وأريحية القائمين عليها.

على طريق بين تلال صخرية، كانت تتراءى بين سفوحها خيام البدو، وحظائر مواشيهم، كان الجميع قد نسي الكدر إيّاه، كأنما لم يعشْه منذ ساعة. ظلّت تلك الروح اللطيفة تحوم في أجواء الرحلة حتّى لمح أحدنا تلّة بعيدة، تصطفُّ على قِمَّتها بيوتٌ مسقوفةٌ بالقرميد، وعلى طرفٍ منها ينتصبُ برجٌ، غالب الظّنّ فيه أنه خزّان ماء. سأل أحدُنا رائد عنها، فأخبرنا أنها مستوطنة إسرائيلية.

مستوطنة؟! هنا؟! في قلب منطقة يُفترَض أنها تحت سلطة الإدارة الفلسطينية.. عادت الغُصّة إلى حلوقنا، وفسدت من جديد بهجةُ اللقاء الأوّل مع الأرض. رحتُ

أفتّش في داخلي عن تلك الشّماتة اللذيذة التي أوحت لي بها لافتةَ ربّ الجنود، فلم أجد لها أثراً، وعن تلك الخفّة الطافية على وجه الروح بعد استراحة أريحا، فوجدتُها قد تبخّرت، وعن ذلك التّجلّي الرّمزيّ لانتصار العبور، وقد صار دَكًّاً، فالملاعين صاروا هنا من جديد، وما فعله بنا المعبر أَكملتْه المستوطنة.

مشهد ١٥ / جلالة الاسم، ورائحة الحياة

عند مشارف رام الله قابلَنا حاجز عسكري إسرائيلي، يشقّ الطريق نصفَيْن بين قادم ومغادر. كان الحاجز عبارة عن عارضة مرفوعة، ومكعّبات من الإسمنت المسلّح، وغرفة مراقبة صغيرة، مركّبة الجدران من قِطَع الإسمنت المسلّح أيضاً، كان الحاجز يقف مثل شوكة في حَلْق المدينة. عبرت منه السّيّارات التي كانت قبلنا، ثمّ عبر باصُنا وئيداً، دون تفتيش، تحت نظرات متكاسلة لجنود يافعين، يهدُّهم الضجر. يوشِك أن يقذف بهم نحو الخبل. تراهم فتكاد تحسب الواحد منهم تائهاً بلا أمل في براري بلا ماء..

ودخلناها، رام الله..

هل توجد مدينة غيرها بين مُدُن العالم تحمل اسم الجلالة محفوراً على وجهها الصخري؟

بعض تلالها التي كانت قد تراءت لنا من بعيد تحت شمس ما بعد الظهيرة، بدت مثل شفاه فاغرة لصبايا حالمات، وأخرى مثل جباه متشقّقة لكهول عائدين من حصاد الحقول، وثالثة مثل خدود أطفال نائمين.. كان وجه الله الباسم البسيط يحلّ في وجه المدينة، وقريباً منه، على تلّة في طرف من المدينة كان وجه الشيطان ينتحل صورة جدرانية لتجمّع استيطاني، أشار رائدٌ إلى ناحيتها من وراء زجاج الباص.. حيث الجدار الإسمنتيُّ المسلّح العالي الشائك، يشقُّ ندباً كبيراً على وجه المدينة.

مأخوذاً بالدهشة، لا أكاد أسمع ما يدور بين الرفاق من أحاديث، مستسلماً لمناجاة كانت تصلني من المشاهد السائرة عكس اتّجاه الباص، مشاهد أوّل رام الله الجميلة، الأوّل الذي يُنسي القادمَ الغريبَ أنه مرّ من معبر لعين، أو رأى وجه الشيطان مرسوماً على جدار.

في ذلك الأوّل منها يرى القادم الغريبُ العمارات العاليات، والبيوت التراثية الباقيات، والأطفال المقبلين، والشّبّان المتأنّقين، والصبايا الحالمات، والشيوخ والعجائز، الباسمين والباسمات.. يرى الحياة.. يرى حركتها، ويشمّ رائحتها، ويردُّ على المناجاة بمناجاة.. هذا الشعب حَيّ، هذا الشعب لا يموت.

مشهد ١٦/ وحدانية المرّة الأولى

وصلْنا الفندق، أكملْنا إجراءات التسجيل، وانصرف كل واحد منّا إلى غرفته.. أمّا أنا، فتركتُ حقيبتي المغدور بها عند مكتب الاستقبال، وخرجتُ.

خرجتُ وحيداً قاصداً أن أهيم على وجهي.. فهذا الميقاتُ نادر، وحَيْنُه لحظةٌ فريدة، إن هي وُجدت مرّة، فلن تتكرّر، وإن عطفت الأقدارُ وكرَّرتها، فلن تكون أبداً بالجلال الأوّل نفسه. كل شيء هنا ستراه للمرّة الأولى، وللمرّة الأولى وحدانيُّتها الخالصة. تدعوكَ إلى أن تنطلق وتضيع في مكان الزمن.. دون خريطة، دون توقيت، ودون هدف. فإن تكاسلتَ أو تمنَّعتَ؛ عادتْ وطوّحتْ بكَ بعيداً في زمن المكان، حيث الفراغ الرحب الذي يمتدّ داخلكَ، لحظة تصير فيها نظرتكَ إلى أصغر حجر مهمَلٍ على الأرض، كأنها نظرة إلى معجزة..

سطر عصافير يحطّ على سلْك عمود كهربائي.. معجزة.

حفيف أوراق صنوبرة على الرصيف أرعشتْها هبّة ريح جنوبية.. معجزة.

رسمٌ على حائط منزل قديم ليدٍ تُشهِر قبضتها، وتتوعّد بالكفاح.. معجزة.

صبي يلاعب قطّة عند باب عمارة، ألقيتُ عليه التّحيّة، فلم يُلقِ لها بالاً، لعلّه استغرب لكنتي.. معجزة.

غمامة بيضاء تترنّح وحيدة، في قلب سماء تصبغها شمسُ الأصيل بلون النبيذ.. معجزة.

لساعَتَيْن، مشيتُ بين المعجزات في دروب المرّة الأولى، دروب الأشياء والشخوص والمعالم، الصغيرة والكبيرة، تراها عيني، فتجدها شبيهة بنظائر لها في أمكنة أخرى، لكنها هنا جديدة، بكْر، لأنها تُرى في المكان الذي لم يُرَ من قبل، رؤية صارت بها المناجاة فرحاً رشيقاً، استخفَّ الأقدامَ المتعبة، وانتهى بها إلى ساحة سوق شعبي يضجّ بحركة المتسوّقين، وتتعالى فيه أصوات باعة الخضار، يُحرّضون بالنداءات المسجوعة على بضاعتهم المفروشة أرضاً، كان نظير هذه المعجزة في سوق رام الله التحتا يأتيني من سوق مدينتي الذي كنتُ أقصده في طفولتي، لا لأجل ابتياع شيء، ولكنْ، لاقتناص لذّة الإنصات لتلك النداءات التي لم يفارقْني رَجْعُ صداها منذ سمعتُها للمرّة الأولى.

سرتُ بين حشود المتسوّقين والباعة، وبي رغبة أن أعانقهم واحداً واحداً، أن أصرخ في حضورهم بصوت عالٍ:

اسمي عبد الله، اسم أمّي: رقيّة، قادم من المغرب، واصل توًّا إلى: رام الله.

مشهد ١٧ / حليب الأرض

عدتُ من السوق إلى الفندق مستقلاً سيّارة أجرة، قرُّرت هذه المرّة أن آخذ وقتي، لأستطلعَ الفندق، نجومه كانت خمساً، ولبهو استقباله أناقة البسيط الفخم، أمّا باحة مطعمه، فتطلّ على مشهد، تبدو منه رام الله غابة صغيرة من العمارات الجميلة المتناسقة، لو زيدت عليها خضرة الشجر لتوهّم الرائي أنه في مدينة من مُدُن التلال الأوروبية، لا بلدٍ يرزح تحت احتلال بغيض، يحارب شعبه في القوت كما في الحجر.

أخذتُ حمَّاما سريعاً، غيُّرت ملابسي، وانطلقتُ من جديد نحو معرض الكتاب. كانت مراسم الافتتاح الرسمي قد فاتتْني، إلا أن الوجوه التي التقيتُ بها هناك أشعرتْني أن جيناتي تصطبغ بفرح قديم، يصعد إلى القسمات، مثلما تصعد أصداء نداء من جوف بئر عميقة، عانقتْ الأحبّة، فشممتُ روائح البلاد، البلاد التي رضعنا حبَّها القدسي في حليب الحكايات التي رواها لنا الأجداد والآباء،

يحيى يخلف، كرمة الحكي الأصيلة، تعرّش فوق البُروق.

محمّد الأسمر، حبيبٌ لا تَبلى في القلب محبّته.

رائد فارس، كنز لا يمكن العثور عليه إلا هنا.

نوال حلس، أخت روح، تجود على العالم بابتسامة كنعانية.

حسني رضوان، دمع الذاكرة يسيل بألوان الفرح.

نادر جلال، تعالوا ندرز جرح النوى بخيوط الموسيقا.

غسّان زقطان، بريٌّ مديح هذا الطائر الذي يطلع من أعالي المرايا.

زياد خدّاش، إلى جُبّة الطفل تعود الحكايات التي اسّاقطت على الأرض تباعاً.

وائل مناصرة، ذئباً وحشة نحن، يا صديقي، وهذه الألفة غابتنا المفردة.

خلود عبد الله، أثر الغزالة يبقى، ويزول حزن النهر.

يارا فارس، لو كانت فلسطين صبية؛ لكانت لها عيناكِ.

بتول القيسية، نوّار الجنوب يُزهِر في شمال الليل.

عبد السلام العطّاري، عزف الرعاة يُخصِّب ترابَ الزيتون.

بديعة زيدان، شَغَف الحياة، من شَغَب الكلمات،

عبّود الطريفي، قادم فجر الخلاص، يا فتى الغضب الجميل،

عجوز لا أعرفها، في هندامها المديني الفاخر، كأنها حدستْ أني مغربيّ، فابتسمتْ في وجهي بحنو أمومي، وأخبرتْني أنها زارت المغرب مرّات، وأن

طنجة عندها أجمل من كازابلانكا، صافحتْني في نهاية الحديث، فقبُلت يدها (بذوق الإبن المطيع).

مشهد ١٨ / من زاوية الرؤية الآمنة

أخذتُ كوب القهوة، وبحثتُ في الرواق المفضي إلى صالة العرض، عن مكان أقتعده، وجدتُ رقعة فوق وجه رصيف الحديقة التي عند جانب السور المحيط ببناية المعرض، هناك أشعلتُ سيجارتي، وشرعتُ تحديقاً في الجمهور من زاوية التّلصّص الآمن.. خَيَّلت لي مسافةُ التراجع عن المشهد أني أشاهد تسجيلاً فيلمياً، أو كأني أستعيد من قلب اليقظة حلماً تجري وقائعه أمامي مباشرة، وفي حينها. وبدأتُ أهذي مقاطع الحكاية التي سأجدني أرويها حين أعود، أرويها لأمّي التي تحبّ فلسطين، وترسم لها في مخيّلتها صورة الأرملة تقاتل بأسنانها وأظافيرها، كي تحمي أولادها، لزملائي في العمل حين يأتون لتهنئتي بالعودة، ككل المرّات التي كنتُ أغيب فيها عن أنظارهم لأيّام عديدة، لخالد وعبد القادر والمحمَّدَيْن، أصدقاء الصبا الخُلَّص، للبَكّاي صديقي المغترب الذي سمعتُه مرّات يتضرّع إلى الله، كي يجيء به إلى هذه الأرض، ويقتله شهيداً عليها، (يقتله).. بهذا اللفظ القاسي كان البَكّاي يعبّر عن أكثر أمنيّاته الطالعة من النقطة الأعمق في روحه..

هنا، يا أُمّي، ويا كل مَنْ أعرف، هنا شعب جميل، جميل وأصيل..

لكنْ، يا أُمّي، ويا كلّ مَنْ أعرف، هل سأستطيع أن أعرف كيف أروي وأصف تفاصيل هذا الجمال الذي أراه الآن أمامي مباشراً، وفي حينه؟!.. مَنْ يستطيع، يا أُمّي، أن يروي حلماً كما رآه؟!

أُمّي قَصّاصة الأحلام البارعة، حين علمتْ أني ذاهب إلى فلسطين، تملَّكها الخوف، فحاولت ما يشبه ثَنيي عن السفر، وحتّى بعد أن أحرجتُها بلُؤم، وذكَّرتُها كيف كانت تزمجر غضباً أمام مشاهد الإجرام الصهيوني الذي كنّا نراه على التلفزيون، فتصرخ: يا ربِّي، هل من سبيل للذهاب إلى هناك، لو يعطوني متفجِّراً ناسفاً، أدسُّه تحت جلبابي، حتّى إذا اقتربتُ من هؤلاء الملاعين، فجَّرتهُ في وجوههم.

حين ذكَّرتها بسيرتها تلك؛ أجابتْني: أذهب أنا وأستشهد دون تردّد، أمّا أنتَ، فلا.

أمام التلفزيون، وهي تتابع الأخبار، لم تكن أُمّي تأسى على روح الشهيد الفلسطيني، بقدر ما كانت تأسى على قلب أمّه المفجوعة من بعده.

أُمّي التي تحبّ فلسطين كانت تكره الصهاينة، وتنعتُ بالصهيوني كل قاسي القلب عديم الحنان من معارفها أو أهلها، وحين كانت تخاف عليّ أن أصاب بنزلة برد من حمّام البيت في شتاء وجدة القارس؛ كانت لا تذخر وسيلة، كي تدفعني دفعاً للذهاب إلى الحمّام البلدي، وحين أعود منه، كانت تُهنّئني، وتُخبرني باسمة أن لي من حمّامي أجراً غير ممنون، كأجر مَنْ قتل صهيونياً، فَقَتْلُ الصهيونيِّ ونَزْع الأوساخ والجِلْد الميت عند أُمّي سِيَّان.

مشهد ١٩/ على خيط مسحور

بقيتُ على حالي ذاك مستغرقاً في زاوية الرؤية الآمنة إلى أن رمقني عليّ، حاملاً كوب قهوته، تقدّم نحوي، وقعد جنبي،... كان اقتسامنا رقعة على حافّة الرصيف، وكوبا القهوة في يَدَيْنا والسيجارتان بين الأصابع، يشهد على صداقة قديمة قِدَم زمن المعبر، المعبر الذي بدا بعيداً متوارياً خلف شريط المشاهد التي مرّت، حتّى لو لم نكن قد تبادلْنا منذ عمّان إلى هنا والآن سوى جمل قصيرة، بعضها حين كنّا نعبر.. وأخرى سبقتْها نظرات صامتة، تبادلتْها عيونُنا، دهشة بالقياس نفسه من منظر، كنّا نراه معاً في اللحظة نفسها، ونحن نخرج من المعبر، أو في رحلة الباص الذي ذهب بنا من المضافة إلى رام الله.

عليٌّ يكون مثلي، لأنه يعيش التجربة للمرّة الأولى.. ولن أقدر أن أكون مثل عليٍّ في تمثّل رهباتها.. فجينيالوجيا الذاكرَتَيْن مختلفة، حتّى لو كان قياس الدهشة بيننا واحداً، حتّى لو كنّا نكاد نروي، بالأسلوب والمفردات نفسَيْهما، مشهدَ الاشتباك البصري الأوّل مع جنود الاحتلال.. وحالة الاستغراق الذّهنيّ في ما تراه العين.. وانشراح البصيرة من رؤية التراب والعشب عند جذع الجُمَّيْزَة العملاقة في أريحا.. عليّ فلسطينيّ وُلد في بيسان، وما تملكه روحه وبصيرته وذاكرته ووعيه جاءه ممّا انتقل إليه عبر آخرين.. الآن ينوجد عليٌّ على الأرض.. قدماه تكتشفان الخطو من جديد، فالأرض غير الأرض، والتراب غير التراب.. حتّى العطش مختلف هنا، لأن الماء الذي يرتوي منه الآن غير الماء.. عليٌّ حين شاهد فراشة تابعها بلهفة عين، وحدَّق طويلاً في السماء التي كانت تحطّ بجانب العصفور، فمدّ يَدَيْه إليهما، وسحب نطفة من غمامة أمطرت في عينه دمعاً ساخناً.. عليٌّ يكتشف اللغة والعالم من جديد.. عليٌّ يعود ويتَّحد مع رحمه الرّمزيّ،.. يُولَد من جديد بتاريخ متجذّر قديم.

عليّ العامريّ في فلسطين يخطو مسحوراً على خيط من نور.

مشهد ٢٠/ وعليه.. ولا يمكن

غربت أوّل شمس هنا، وحلّ ليل رام الله.

عائداً إلى الفندق رفقة مجموعة ضيوف، كانت المدينة تُدخِل كهولها وعجائزها إلى البيوت، وتُخرِج شبّانها إلى المطاعم والفنادق، أمّا عنّي، فقد كنتُ متأخِّرا بدقائق عن موعدي مع رائد. حين وصلتُ إلى الفندق، وجدتُه ينتظرني في البهو، تشابكتْ أكتافنا، وتعانقنا، كما لو أننا نُهنِّئ بعضنا على خروجنا توًّا من المعبر، ثمّ تبادلْنا ضحكَتَيْن لئيمَتَيْن.

سحبَني رائد من يدي، واستقلَّيْنا سيّارته سائرَيْن دون وجهة محدّدة، بعد نصف ساعة، كنّا نتوقّف دونما قصد معيّن أمام مقهى، ولجناه لاستراحة خفيفة. باحثَيْن بين الطاولات عن واحدة.

المقهى البار كانت طاولاته محجوزة كلها تقريباً لجمهور يستعدّ لمتابعة نقل مباشر لمباراة كرة قَدَم بين الغريمَيْن الإسبانيَّيْن. فلم يشأ النادل أن يُفوِّت حصَّتَي زبونَيْن إضافيَّيْن، لذلك قَبِل أن نجلس على طاولة في ركن قريب من المدخل بدل الطاولة المتقدّمة التي اخترناها أوّل وَهْلَة، نظر إليّ رائد كأنما يطلب رأيي في اختيار النادل، فأجبتُهُ عفويًّا: ".. وعليه".

طلبْنا مشروبَيْن، غير عابئَيْن بالمباراة التي ستنقلها شاشة تلفاز كبيرة، فيما كان الزبناء الآخرون يتحرّقون انتظاراً لها. بعد لحظات، وصل زبونان جديدان، فاقترب منّا النادل متودِّداً أن نُغيِّر الطاولة، لأنها محجوزة لهما، واقترح علينا طاولة متأخّرة، هنا نظر رائد في وجه النادل نظرة، لم يكظم فيها غيظه، وأردف عفويًّا: ".. ولا يمكن!".

بدا النادل كأنه في ورطة، ولم يجد بُدًّا غير تصعيد إيقاع النبر في حديثه، ليُثبت لزبونَيْه أنه يستفرغ الجهد لأجلهما، وأن المشكلة في فظاظتنا، لا في تفريطه الأوّل في الطاولة، لكن رائد الذي التقط الإشارة عاد وكرّر في وجه النادل عبارته الحاسمة: "ولا يمكن! لو جات عليَّ وحدي، لهانت، لكنْ، هذا ضيفنا من المغرب، بدكم تفضحوني!". قالها وهو يغمزني خفية عن عيون الحضور الذين انتبهوا للمحادثة.

غيّرت العبارةُ جوَّ الموقف، ونقلتْه من الحدّة إلى اللِّين، أمّا النادل، فتراجع عن تصميمه، وأمّا الزبونان، فانضمّا إلى طاولتنا.. وانطلقت المباراة، وصارت تصلني تحايا الترحيب من الشباب والصبايا.. "مرحبا" من هنا ومن هناك.. "بنحبّ ناس المغرب".. " ابن خالتي يدرس عندكم، أمنيّتي أزور المغرب".. "أنتَ من فاس؟".. "أحبّ المغاربة والجزائريّيْن لكنْ، أحبّ التوانسة أكثر ".

كان شعوري بالسعادة غامراً، تخالطه إثارة لطيفة، فالجمهور الذي لن تخلو روح كل فرد منه من شعور بالأغلال التي تُقيّد الحركة فوق هذه البقعة من الأرض، سيُثيره لا شكّ، وجودُ قادم من أقصى الغرب، يمتحن هذا الشعور، أو يُعمِّقه، لستُ أدري!.. لكن أسئلةً بدَت لي خلف العيون التي كنتُ أرمقها وهي تتخوَّن نظرات سريعة إليّ.. عيون مَنْ تصّنعوا للموقف بداهة العادة، تُرى كيف وصل هذا إلى هنا؟ ومن أيِّ معبر جاء؟.... فيما أنا الزائر الغريب الذي يتخيّل الآن ألوفاً أو ملايين في مقاهي وبارات عواصم العالم ومُدُنه وهم يتابعون المباراة ذاتها، في الوقت ذاته، دونما أسئلة سوى سؤالٍ عن أيّ الفريقَيْن سيفوز بالمباراة؟ الزائر الغريب ذاته يرى بأمّ عينه كيف يُصرّ شباب هذا الشعب وصباياه على ممارسة الحياة، واجتراح ألف سبيلٍ إليها.. ويستطيعون كثيراً منها، رغم حصار العدوّ الذي يرى في وجودهم تهديداً لوجوده، ويرى في فرحهم نكاية بجبروته... وعليه، ولا يمكن للحياة إلا أن تبسط لهم مباهجها التي تبدأ من فرجة على مباراة كرة قَدَم، ولا تنتهي عند تحقيق حلم الخلاص التّاريخيّ.

انتهت المباراة، وتطاول ليلَ رام الله، مُرتحِلاً بنا من مقهى إلى مطعم إلى حانة إلى ساحة، إلى أن تلاشت عتمته مع أولى خيوط الفجر.

اليوم الثاني

مشهد ٢١ خَرَسانة وزهور

أربع ساعات من النوم كانت كافية لأستيقظ بمزاج رخيّ، راقَ أكثرَ بالضوء الذي شعَّ في الغرفة حين سحبتُ ستائرَ النافذة. نِثارُ غيماتٍ صغيراتٍ يُزَوِّقنَ سماءَ الصباح الأوّل في رام الله.

أخذتُ حمَّاما سريعاً، ثمّ فطور العاشرة والنصف، وانطلقتُ خارجاً. استوقفتُ أوّل سيّارة أجرة في اتّجاه المعرض، وطلبتُ من السائق أن تكون الرحلة عبر أطول طريق ممكن، استغرب أوّل الأمر من طلبي، وبسؤاله لي عن جنسيّتي، فَهِمَ ما أرمي إليه. فزائرٌ في مِثل حالتي يريد أن يرى أكثر ما يمكن له في كلّ سانحة من الفرص، ورحلةٌ في سيّارة أجرة تُتيح قُرْبا خاصًّا يصير مع مرور اللحظات حلولاً كاملاً في المشهد، فترى العين من ذلك ما لا تراه في مواقف أخرى.

في الطريق تجاذبْنا، أنا والسائق الخمسيني، أطراف حديث متقطّع، أكثره ما حدّثني فيه عن رام الله التي كانت مصيفاً صغيراً وجميلاً، تأتيه العائلات من المُدُن الأخرى لجَوِّه المحمود، ومناظره الخلّابة، غير أنها لم تكفّ منذ التّسعينيّات عن التّحوّل من مستعمرة للزهور إلى غابة من الخرسانة والصخر، بسبب ما عرفتْه من التّغيّرات التي انتقلت بها من مدينة صغيرة إلى مركز للسلطة الجديدة، ودارٍ لصاحب القرار السّياسيّ، وأيضاً ممّا ورد عليها من الوافدين الجدد، وأصحاب رؤوس الأموال، وهو ما رفع بوتيرة عالية أسعارَ العقارات وكلفةَ المعيشة في أحوالها كلها، وأظهرَ في البلدة التي كانت تصطبغ بخصائص الريف سلوكاتٍ مَدِينيةً، لا تُلقي البال كثيراً للرقابة الاجتماعية.. السائق الكهل الذي أخبرني أنه قضى رَدَحًا من طفولته في رام الله، بدا مشحوناً بالغيظ والأسى معاً، كأنما كان يريد أن يقول: لا يغرنَّكَ ما ترى، وما إلى مثل هذا تخيَّلنا أن الأمور ستؤول!... مع مرور بعض الوقت، صار يُبدي بهجةً عفويةً بِوَصف الأماكن التي كنّا نمرُّ منها، عبر شارع النزهة، وفي اتّجاه دوّار الساعة، ميدان الاعتصامات عند الفلسطينيّيْن، ثمّ منه عبر شارع يافا مروراً بمضايق كانت تُدْخِل العينَ في زمن غير زمن الشوارع الرئيسة، ففيها ترى من المدينة وجهَها الأوّل، حيث البيوتُ الأقدم، بحدائق مداخلها وشبابيك شرفاتها ومربّعات الصّخر التّلّيّ المنحوت على واجهاتها، محفورة سنواتُ تعميرها، وأسماءُ أصحابها على قِطَع مرمر، تُكلِّلُ أبوابَها. ثمّ ما نلبث أن نعبر في خلاء من الأرض، تربِضُ فوقه آلياتٌ ثقيلةٌ ذواتُ مناقيرَ وأنيابٍ من فولاذ، تقضم بها صخرَ التلال، وتجتثُّ ما نبت فيها من زهر، لتحفر فيها جيوباً لخرسانة البناية القادمة.

مشهد ٢٢/ أخو المستحيل..

وصلتُ إلى المنتزه الترفيهي، حيث معرض الكتاب، الجمهور يملأ جنبات المكان، وتغصُّ به أجنحةُ العارضين، جمهور من الأعمار كلها، وأكثره يافعون ويافعات أو أطفال في رفقة آبائهم، كان المشهدُ الذي كنتُ أراه يُصدِّق شعارَ المعرض، "فلسطين تقرأ". انغمستُ بين الجموع في جولة داخل صالة العرض الكبرى، يملؤني الإعجاب بحُسن التنظيم، فمعرض فلسطين العاشر بِعَيْن واحدٍ مثلي، سبق له أن نظّم معارض للكتاب، وزار في مرّات كثيرة معارضَ عربية وغير عربيةٍ، لن يتردّد أن يشهد بأن هذا المعرض، على تواضع مساحته؛ يضعُ قَدَمَهُ راسخةً على خريطة المعارض العربية، بحُسن نظامه وجمال تهيئته، وهو، كما وصفتْهُ أمس في جوابٍ لأحد الصحفيّيْن؛ معرضٌ أخو المستحيل.

فالقائمون عليه يبدؤون التحضير له بشهور، وهم يعلمون أنهم يجازفون، لأن لا ضمانة لديهم من أن إسرائيل، التي يُسمّيها العالم دولة ديموقراطية، سوف تسمح بالمرور للكُتُب الموجَّهة إلى المعرض، أو تُصرِّح بالعبور للعارضين فيه، ولضيوفه من المثقّفين، وهذان الأمران هما ما يحقّقان معرضاً ما على أرض الواقع، لكن أرض الواقع هنا صلدة وناتئة، يملؤها ضابط الارتباط الإسرائيلي بألغامِ التسويف وتأخير التصريحات، يفعل ذلك مُراهِناً على تحطيمِ عزيمة المُنظِّمين، ليُؤَخَّرَ المعرضُ إلى أجل غير مُسمَّى، أو ليفشلَ إنْ هو نُظِّم. وهو لذلك أخو مستحيل، كما وصفتُهُ، ومَنْ يراه على صورته، يتيقَّن أن مُنظِّميه صعدوا به، كما يصعدُ بصخرته، وينجح سيزيفٌ عَنيدٌ.

تحت سلاح الدولة الديموقراطية، يُنظِّم الفلسطينيون معرضاً للكتاب، دولياً وأنيقاً، يغيظون به عدوَّ حُرّيّتهم، الذي يكره أن يرى صغارهم يمسكون سلاح الكلمة على الورق، بالقدر نفسه الذي يكره أن يرى كبارهم يحملون سلاح البارودة على الأكتاف.

قادتْني الجولة في المعرض إلى أجنحة العارضين القادمين من وراء المعبر، مصريون وأردنيون وكويتيون ومغاربة وتونسيون.. يلهجون هنا بألسنتهم، يسمعها الفلسطينيُّ زائرُ المعرضِ الفلسطينيِّ، فيداخله منها تَأنُّسٌ ما، فتُنازعه نفسه إلى جَذْب طرف حديث مع هؤلاء الأشقّاء، وكأن سماع تلك اللكنات يُخلخل شعوراً جاثماً في داخله، شعوراً بأن هذا (الوطن المحتلّ) سجن كبير، الوصول إليه بالنسبة لكثيرين عسير، والخروج منه بالنسبة لأكثر منهم أخو مستحيل.

مشهد ٢٣/ النسر في الزنزانة.. النسر في السماء

في البهو الذي يتوسّط فضاء المعرض كان زياد يفتح لي ذراعَيْن للمحبّة التي نشأت بيننا في العالم الافتراضي، وانتظرتْ طويلاً قبل أن تتحقّق على الأرض هنا، تعانقنا - وعرّفني إلى ميساء، فلسطينيةٌ في نظرتها هدير، وفي صوتها رائحة الأرق النّهاريّ، وحين تبتسم تخال أنكَ ترى زيتونة، تُزهِر بالنسرين.

شرب ثلاثتنا قهوة فلسطينية، غادَرَنا زيادٌ بعدها فاتحاً ذراعَ محبّة أخرى لقادم جديد، ثمّ دعتْني ميساء إلى زيارة فضاءٍ في الطابق السّفليّ للمعرض، لتُطلعني

على مفاجأة هناك.

نزلْنا درجاً، يُفضي إلى قبو فسيح، هيّأه المنظِّمون، ليكون مُجسَّماً يحاكي دهاليز المعتقل الإسرائيلي، وأطلقوا عليه اسم فضاء الحُرّيّة.

ممرّات تتابع حُجُرات الزنازين بين جانبَيْها، مَطليَّةٌ جدرانُها بألوان قاتمة، أولاها لغرفة تجريد الأسير من أغراضه، ثانية للتحقيق، وثالثة للضغط النَّفْسيّ، بِحَيِّزٍ ضيِّق، لا يسعُ الأسير جالساً أو مُقرفِصاً، وسقفٍ واطئ، يُجبره على البقاء طوالَ الوقت واقفاً مَحنيَّ الهامة، حتّى تضغطَ فقراتُ العنق على مفاصلها حدَّ العُواء من الألم، ثمّ غرفةٍ رابعةٍ لانتزاع الاعترافات تحت التعذيب بأصناف من الكراسي والحدائد التي تجعل الروحَ تَئِنُّ دون أن تسيل من الجسد قطرةُ دم واحدة. ثمّ يقذفون به في غرفة، يسمّونها غرفة العصافير، كأنما يأخذ الأسير في ًلا وعي سَجَّانيه صورةَ نسر، فلا يُصاد إلا بذريعة أو بطُعْم، والطُّعْمُ ليس إلا عملاء يهود، يلعبون أمام النسر دَور أسرى فلسطينيّيْن، يستدرجونه بالتعاطف، كي يُلقي أمامهم - وهو المُنْهَك المُستنزَف - بالأسرار التي لم يقدر أن يُحصِّلَها منه ضابطُ التحقيق.

في الجولة رفقة ميساء بين غرف المعتقل، مرّت الثواني بطيئة وثقيلة، ثوانٍ كانت فيها الأنفاس والحواسّ تضطربان من تجربة السجن التي يريد المكان أن يحاكيها، فَتَعْبُران، في غفلة من الوعي، تلك العتبةَ الرفيعةَ الفاصلةَ بين فخِّ التخييل وهُوَّة المعايشة، مُخَلِّفَة مشاعرَ متصاديةً بين معاناة الزمن تحت وطأة الهلع الآدمي الأوّل على استلاب الحُرّيّة، وتَحَمُّلِ البشاعةِ الطافحةِ من عجز الحقِّ أمام القوّة.

الآن..

في الزنازين الحقيقية التي تحاول هذه الديكورات أن تتشبّه بها؛ يقبعُ من نسور فلسطين وعِقبانها الجارحين سبعةُ آلاف أسير، نساء ورجال، أمّهات رفقة مواليدهنّ، يافعون وأطفال. كلهم عاش تجربة اليوم الأوّل هنا، وكلهم فكّر في (المكان) الأوسع من زنزانة، و(الزمان) الأطول من عمر الظّلّ نهاراً على حائط الزنزانة، وكلهم.. كلهم ينتظر يوماً آتٍ، تطأ فيه الأقدام تراب ما وراء الزنزانة، ومنهم مَنْ أكمل تعليمه، ومنهم مَنْ واصل دراسته، وأحرز شهادته العالية، ومنهم مَنْ هَرَّب نطفتَهُ، فأنجب، وهو المسجون، طليقاً من صُلبه.

في نهاية الجولة، كان كَرْبُ التجربة قد بلغ أقصاه، وكان وجه ميساء الهادر يتماسك، كي لا يفلت دمعة النسرين، خرجْنا من مخرج ينتهي بزاوية، هيّأ فيها المنظِّمون معرضاً للوحاتٍ، رَسَمَ فيها الأطفالُ أطفالاً وبيوتاً وأسلاكاً وأشجاراً وتلالاً وأزهاراً...، وسماواتٍ، تُحلِّق فيها النسور.

مشهد ٢٤/ الـ٤٨ - عــين وطن

صادفتُ زياداً ثانية، وعناقٌ كأنه الأوّل، رجوتُ منه أن أشهدَ حصّة مع فتيان فصله الدّراسيّ، نغنّي، نرقص، نصرخ، نعانق صخوراً، نتحوّل فراشاتٍ، نتبعه

وهو يقودنا إلى القفز من فوق حائط المدرسة، لكنه أخبرني أن رجائي لن يتحقّق بسبب عطلة الأطفال في هذا اليوم. عانقتُهُ ثالثة، وصعدتُ إلى مقهى، هناك كان الجمعُ يضمُّ على طاولة واحدة خالداً وغسَّانا وخلوداً، ثمّ انضمّ إليه بعد حين غياث وأسماء وآخرون لا أعرفهم، وسأفهم ممّا دار من الأحاديث أنهم من فلسطينيي الداخل.

فلسطينيّو الداخل حكاية أخرى، كلّما فكُّرت في أحد أعرفه منهم، أدهش من حالته داخل مُمْكِنات الحالة الفلسطينية الجامعة، قد يكونون أحسن حالاً من سواد شعبهم معيشةً، لكنها أحوالٌ تُعاش في البِضْعَة المحاصَرة داخل الحصّة المسلوخة من جسم الوطن. أبناءُ أرضٍ وجدوا أنفسهم (مواطنين)، دافعي ضرائبَ في الدولة التي سرقت أرض شعبهم، يمرّون صباحاً من المعابر إلى هنا، يقضون نهارهم، يزورون أقرباءهم ومعارفهم، يذهبون إلى مواعيد مع مَنْ يحبّون، يشربون قهوة الوطن الثانية، ثمّ يغادرون في المساء إلى بيوتهم في (إسرائيل)، يمرّون عبر المنافذ من الوطن المحتلّ إلى الوطن المسروق، كما يمرّ سيخ في بؤبؤ عين.

أيّ عبء ثقيل تنوء به أرواح هؤلاء؟! أيّ تمزّق، أيُّ انكسار، أيّة غُصّة...؟!

ومنهم صنفٌ حالُه أدهى، مَقدسيّون لا يحوزون جواز سفر أو بطاقة هوية إسرائيلية، تُسمّيهم دولة الاحتلال مقيمين لا مواطنين، وتُسلِّمهم بطاقات زرقاء، فإنْ طرأَ للواحدِ منهم ما يُجبره على الغياب في الخارج لفترة، أو ما يحول بينه وبين أن يُثبت إقامته بعقود إيجار أو فواتير كهرباء؛ عادوا وسحبوا منه بطاقته، ليفقد في رمشة عين حقَّه في العودة.

لفترة طويلة جُلِدَ هؤلاء بسوط السؤال عن انتمائهم، وغريب جدّاً ما كان يقع لهم مع بعض بني وطنهم من الفلسطينيّيْن، ومبكٍ مضحكٌ، ومؤذٍ جدّاً ما كان يقع لهم في مطارات بني جِلْدتهم من العرب.

(.........)

تفرّقتْ أحاديثُ الطاولة شجوناً شتّى.. ثمّ تفرَّق الجمعُ بعدها عن كؤوس فارغة، استقرّت في قُعورِها ثُمالةُ قاسيةُ السَّوادِ، كأنّها بؤبؤاتُ عيونٍ مفقوءة.

مشهد ٢٥/ أرض الموسيقا

مغادراً، شاهدتُ وائل مناصرة وهو يُوشِك أن ينطلق بسيّارته من أمام باب المعرض، استحثّني بحركة من يده على الإسراع، صعدتُ، فإذا برفقته نادر، هذا الفلسطيني الفريد، صاحب ستّين ألف نكتة جاهزة تحت اللسان، وثمانية وعشرين حرفاً على طرفه، تُغيِّرُ مواضعَها في طابور الكلمات، فتتقشع عن ذلك سخريات بيضاء وسوداء وملوَّنة. ومن ضربات أصابعه على الوتر تطلع أنَّاتُ ما كان، وأشجان ما لم يعد، وفي باله حُلْمٌ.. حُلْم؟ بل هَمٌّ هو.. هَمٌّ كبيــــــــر.

سرْنا بالسّيّارة لربع ساعة أو يزيد، إلى أن وصلْنا أمام بيت ذي طراز تراثي عشريني، بحديقة في المدخل، وطابق أرضي، وعِلِّيَّةٍ بشرفات صغيرة، إلى هذا

المكان الذي لم يكن نادر جلال يعرف أنه وُلد فيه قبل خمسين سنة، وعاش فيه عامه الأوّل قبل أن تغادره الأسرةُ؛ يعود اليوم نهاية كل يوم. ليُرمِّم ذاكرة موسيقى شعبه.

اختار نادر أن يكون البيت مقرًّا لمؤسّسة (نوى) التي يديرها، ويطمح بها إلى إحياء التراث الموسيقي الفلسطيني المغمور، الذي يجهله كثيرون، وأنا أوّلهم، ويجهلون أعلامه ونوابغه، ممّنْ أسهموا في تأسيس قواعد الموسيقى العربية الحديثة. وكان نادر قد حدّثني بِسِيَرِهم حين لقائنا العام الماضي في المغرب، وقت حلّت فلسطين ضيف شرف على معرض الكتاب بالدار البيضاء.

دخلْنا غرفة، هي مكتبه، امتدّت يدا نادر إلى درج، فأخرج منه تحفة زجاجية، وصبَّ في الكؤوس الثلاث ماءً، كأنه الذهب، ودون أن ينتبه له أحد منّا، شغَّل مُسجِّلاً صوتياً، فطلعت منه أنغامٌ شاع منها في المكان شجن قديم، تيقّظت له الأُذُن، فانتبهتِ العينُ لحظتئذ للقِطَع التّراثيّة والآلات الموسيقية التي تتناثر في الزوايا، وكأنما انكشف سرّ ما بينها وبين الأنغام من حوار في الزمن، زاد على ما بينها من حوار في المكان. كانت الأنغام لموسيقار فلسطيني، لم يسمع به كثيرون من قبل، موسيقارٌ أطرب من أوّل ما غنّى في القدس أمام محمّد عبد الوهاب، وفي يافا في حضرة أُمّ كلثوم، حدث ذلك في الثّلاثينيّات من القرن الماضي، والفتى لم يجاوز العاشرةَ من عمره. انتهت القطعة التي كانت لروحي الخماش، وانطلق نادر يحدِّث عن عمله الشّاقّ والممتع في آنٍ لجَمْع الذخيرة الموسيقية الفلسطينية المتناثرة في مصر والعراق ولبنان والأردن وغيرها من بلدان الشتات، وزادت الحماسة في نبرته وهو يحكي عن مشروعه

القادم، الذي يُخصّصه لموسيقار ثانٍ، هو محمّد غازي الذي كان عارفاً بالموسيقى العربية، عليماً بأسرارها، بارعاً في مقاماتها، ما جعلَ مُنتجاً موسيقياً فلسطينياً، هو صبري الشريف، يعتمد عليه وقتئذ في تدريب مغنّية صاعدة، اسمها فيروز على أداء الموشّحات والأدوار. ومن غير غازي والخمّاش سردَ نادرٌ أسماءَ موسيقيّيْن آخرين، رياض البندك، يحيى اللبابيدي، يحيى السّعوديّ، يُوسُف خاشو... وآخرين كُثُر، كلهم دَرَسَت آثارُه، وعَلَت اسمَه أتربةُ النسيان، بعدما فَرَّقت النكبةُ بين موسيقاه وأرضِه.

مشهد ٢٦/ صوتٌ من القلبِ، جرحٌ في التّراب

غادرْنا (بيت نوى)، وفي أيدينا كؤوسُنا وما تبقّى في تحفة الزجاج من ماء الذهب، وانطلقْنا تلوي بنا السّيّارة الشوارعَ والطُّرُقات في كل اتّجاه، ونكاتُ نادر تكادُ تفجِّر قلوبَنا من الضحك، ضحكٌ عميقٌ يأتي من وراء الأشداق، أمَّا الفم وما حوى فمجرَّدُ مُكَبِّرٍ للأصوات البرِّيَّة الطالعة من القلب.

سائرين في اتّجاه منطقة الطِّيْرَة، المحاذية لرام الله، وصلْنا عند تلَّةٍ، يَرى منها الواقفُ عليها أضواءَ مدينة يافا، ويلمحُ خطوط انكسارها على البحر، أمام هذا المشهد تَرَجَّلَ خمستُنا؛ الليلُ وأنا والصديقان والحكايات.

الليلَ، الليلَ الذي يصير في هذا المكان مُبصِراً.. فيُرى فيه غَربُ الأرضِ المحتلّة وبحرُها بالوضوح الذي لا يستطيعه النهار.

أنا، أنا القادمُ من المكانِ البعيدِ، الواصلُ هنا، الواقفُ الآن على خطّ المواجهة بين الذاكرة والمخيّلة والجارحة، أطّلِعُ اللّحظةَ، على جرحٍ سِرِّيٍّ في أدغال الجروح الشاسعة لهذا التراب.

الصديقان، نادر يُهَمْهِمُ نَغَماً، يجرحُ به جُرْحَ التراب، ووائل يقفُ في هذه العتمة قبالة تلك الأضواء مُنهَكَاً، مُكبَّلاً، مهزوماً، موجوعاً، مخذولاً، مخنوقاً، خائباً، ومكسوراً أمام هذا التُّراب الجاثم على زفراته.

والحكاياتُ، أشلاءُ الحكاياتِ، حكاياتُ الناس الذين هُجِّروا من بلداتهم، مُخلِّفين وراءهم الضيعة والبيت وجِرَار الزيت وأشجار اللوز وأصوات القلب والذكريات.

مُرعِبٌ وقاتلٌ شعورُ مَنْ يقف على التلَّة في "الطِّيْرة"، ويرى بطفلِ عينِه ما سرقَتْهُ منهُ ذاتَ ليلٍ بصيرٍ أيادٍ غريبةٌ مُسلَّحَةٌ، جاء أصحابُها من بعيد.

ستّون كيلومتراً تقطعها أشلاءُ الضّوء، لتصل إلى هنا، ستّون كيلومتراً من التراب تراها العيون، ولا تستطيع الأيدي أن تقبض منها قبضة، ستّون كيلومتراً، من هذا العُلوّ، تتلهَّى بها الأصابعُ، كلّما حاولتْ أنْ تقبضَ على أشلاء الحكايات المعلَّقة في خيوط الضوء المتلاشي؛ صعدتْ ستّون ألف زفرةٍ فلسطينية، كل زفرة منها تنتظر أن تصير ذات يوم صوتاً برِّيًّا طالعاً من القلب، أو نَغَماً سِرِّياً يُهَمْهِمُهُ التُّراب.

اليوم الثالث

مشهد ٢٧/ كتاب الولد الفلسطيني

عدتُ إلى الفندق مُنهَكَاً، خائباً حزيناً، تعضُّني الكآبةُ. ألقيتُ على الفراش جسداً تضطرم في صدره زفرة الكنعاني، ونمتُ.

في الصباح، كانت الذاكرة المتشقِّقة تطاردُ وقائعَ الحُلم الذي مرّ، كانت تعود ثلاثين سنة إلى الوراء، فيطلع منها صوت (سي محمّد قايدي)، يا إلهي، ما أقدم الذكرى! وما أقدر الذاكرة على الحفر بفؤوس الحُلْم، لإيقاظ الحياة في ما حنَّطَه الزٌّمن من مومياوات الصور. سي محمّد قايدي معلّم السنة الرابعة تحضيري، رجلُ الصّوت المبحوح من شراهة التدخين يروي لنا قصّة اسمٍ كنّا نسمعه، ولم نكن نستوعب معناه.. (فلسطين).

عن فلسطين؛ روى حكاية العصابات المدجّجة بالكراهية تدكُّ البيوتَ بالقنابل، تتسلّلُ من وراء الأشجار المعمِّرة في باحة الأقصى، وتَقنِصُ الأرواحَ، تهجمُ في القرى الصغيرة على المزارعين، تقتل الرجالَ والنساءَ، ولا تستثني الأطفال، وتترك عمداً بعض الأحياء يفرّون إلى النّجاة، ليَرووا من الأهوال ما يُخيف الناسَ، ويدفعهم إلى الهروب. معلّمي سي محمّد قايدي روى ذلك كله، وهو يُدخِّن بشراهةٍ تبغَه الأسود، وينفث دخانه الغاضب من النّافذة، فيما كانت عيناه تتأمّلان الثقوبَ السَّوداء التي حفرتْها كلماتُه في قلوبنا الصغيرة. مُطْرِقاً أعطانا أوراقاً بيضاء، ثمّ غادر غرفة القسم بعينَيْن مُبتَلّتَيْن.

رسمَ الأطفالُ حرائقَ حمراء على الورق، ورسم آخرون وحوشاً تلتهم الأشجار والأحجار والناس، وبقيتْ ورقتي صامتة، يصعقها البياضُ. في المساء، عاد الطفلُ (الذي كُنتُهُ) إلى البيت، عاد مُنهَكَاً، خائباً حزيناً، تعضُّه الكآبة، ونام.

في الصّباح، كان الطُّفل يكتب على الورقة حُلْماً رآه، عن فلسطينية، ترقد أمُّها في فراش المرض منذ استشهد أبوها، لكنها واصلت كفاحه باجتهادها، وأصرَّتْ أن تعمل معلِّمة، لتروي للأطفال حكاية وطنهم المسروق، وتحثّهم على القتال لاستعادته، وذات يوم بعدما أنهت درسها، قامت وودَّعت بالعناق تلاميذَها واحداً واحداً، ثمّ ركبت سيَّارتها المفخّخة، وانطلقت مسرعة بها.. مرّت دقائق، وسُمِع في المدينة دَوِيُّ انفجار كبير، دكَّ الثكنة الإسرائيلية القريبة.

أخذ الطفل ورقتَهُ إلى معلّمه، الذي قرأها، ثمّ كتب على صدرها كلمَتَيْن: (الإصرار والانتصار).

كانت تلك أوّل صفحة في كتاب الولد الفلسطيني.. (الولد الذي كُنتُهُ)، الولد الذي كان يحلم أن يحرِّر فلسطين، كي لا يرى البَلَلَ في عينَي معلّمه مرةً أخرى.

مشهد ٢٨/ صرخة في مرآة

في المعرض، هذا الصباح، صادفتُ وجوهاً كثيرة، هي نفسُها وجوهُ الأمس، ومعها أخرى جديدة، كان صعباً تمييز الوجوه بين حشود الزائرين، فازدحام اليوم الثالث أشدُّ من سابقَيْه. ولم يكن ممكناً أن تمرّ في تجوالك دون أن تنحشر بين اثنَيْن، فأهل رام الله والبيرة وما جاورهما من بلدات صاروا يفدون إليه، وحتّى من المُدُن الأخرى، كالخليل ونابلس وطولكرم؛ تقاطرت على المعرض هذا الصباح باصاتُ التلاميذ والطَّلَبَة.

وسط الحشد، سمعتُ نداءً عليَّ، كان من خلود ومعها رائد وحسني رضوان، الفلسطيني ذو الوجه المنحوت، بشارب بغدادي خفيف، خالط فيه البياضَ الخمسينيَّ سوادُ اليفاع الذي لا يحول. كان حسني يستند إلى عكّاز، بسبب وعكة ألزمتْه البيتَ في الفترة الأخيرة، إلى أن جاء زمن المعرض، فأغراه بالخروج، اقترحت خلود أن نحتسي قهوة في مكانٍ خارج المعرض، على أن نعود في الظهيرة أملاً في أن يكون الازدحام قد خفَّ.

وصلْنا إلى (زمن)، مقهى جميل يرتاده المثقّفون وشباب الفنّانين، ويجد فيه ذوو الصبابات زوايا، يُفصحون فيها بما يكتمون في أماكن أخرى، جلسنا حول طاولة بالخارج، فشمس رام الله هذا الصباح مع بنّ وتبغ تصير مغرية بالاسترخاء والدردشة.

أخذْنا بأطراف الأحاديث بيننا، وأطرفها كان حديث حسني عن وعكته، عن خثرة الدم التي تسلّلت في قلب الليل من عروق قلبه إلى رأسه، حين شعر بها، انتفض سريعاً من فراشه إلى الحمّام، وجعل يُحدِّثها في المرآة، ناورها بكل ما في روح الرّسّام من رشاقة، قاومها بكل ما في القلب من صمود، وصرخ فيها ألا تفعل فِعْلَتَهَا الآن، فبقايا الطلاء الخاثر مازالت تتقاطر من رأس الفرشاة، واللوحات التي يرسم ما زالت محتاجة إلى تعديلات في الخطوط والألوان، وبَتَلات الزهرات التي يسقي في الأصص لم تتحرّر من سَبَلاتها بعد، لكن الخثرة اللعينة كانت مُصرَّةً أن تواصل طريقها إلى الدماغ، حين لم تتبقّ في الجوف صرخة واحدة؛ استحلفها بحقّ أبيه اليتيم في قافلة المهجّرين التي انطلقت نحو العراق، بعد أن زارهم في المخيّم وفدٌ ترأسه ملكةٌ عربية، فأقنعوهم بالرحيل إلى أجل قريب. في بغداد، اشتغل أبو حسني سائق باص، يحصي الرّكّاب والمسافات وأيّام الأجل الموعود، إلى أن اكتشف في إحدى المرّات أنه ينقل مجموعات عوائل وأفراد من بغداد إلى ميناء البصرة، عراقيّيْن كانوا، لكن لكنة همهماتهم كانت غريبة عليه، استبدّت به الحَيْرة، فسأل أحدَهم، وحين أجابه ماجت الأرض تحت قَدَمَيْه، وهاجت خُثارة الدّم في قلبه، فرُكَّابُه في ذلك اليوم كانوا يهوداً، يجري ترحيلهم إلى الأرض التي هُجِّر هو منها. ومنذ ذلك اليوم، صار أبو حسني يصرخ في المرآة: فلسطين لم تُسرَق فحسب، لكنها بِيعَتْ أيضاً.

ما بدأ حديثاً طريفاً انتهى بدموع ثلاثة رجال حول الطاولة، دموعُ أفاضتْها مرارة الخيانة في حكاية نقطة الدم التي رقدت في قلب الأب ذات صباح في العراق، واستيقظت بعد ستّين سنة في دماغ الابن ذات ليلة في رام الله.

مشهد ٢٩/ دموع محرّرة

جفّفْنا الدموع التي خانتْنا، تجرَّعْنا القهوة المُرّة، وحِرْنا كيف نُلقي بعيداً بالحزن الثقيل، وبالصمت الذي خلّفه، فلاذ كل واحد منّا بهاتفه يتصفّحه، لم نرفع رؤوسنا عنها إلا حين ضحكت خلود منّا، وعقّبت: "الفيسبوك مثل الثلّاجة الفارغة، بتكون عارف ومتأكّد أنها فارغة، ولكنْ، كل شوي بتفتح تشوفها".

انكسر الصمت، وضحكنا ضحكَ المتورِّطين المُقرِّين، لكني عاندتُ وحرَّكت رأسي علامةً على مخالفة الرأي، وقتها كنتُ أتصفّح صفحة خلود الفيسبوكية، فقرأتُ على المسامع منشوراً لها، يُبرهن أن الثلّاجة ليست فارغة على الدوام. كان المنشور الساخر في صورة معلومة:

- سامعين بالخليفة المتوكّل، "كان في رحلة صيد، لمّا رمى عصفوراً، فلم يُصبْه، فقال له الوزير: أحسنتَ! وردَّ الخليفة: أتهزأ بي؟! فأجاب الوزير، لقد أحسنتَ للعصفور، يا مولاي. فكانت هذه أوّل تطبيلة في التاريخ الإسلامي، ومن يومها، والتطبيل مستمرّ إلى يومنا هذا".

وقبل أن تخرج الضحكات المُرّة من قلوبنا، كنتُ أقرأ منشوراً ثانياً لها:

- "خُضَرجِي الحارة باع لأُمّي كيلو التّفّاح بسعر أغلى من السوق، أُمّي ماتت وهي بتفكّر أن الخاين الوحيد بها البلد هو خضرجي الحارة"!

تعالت الضحكات، وتداخلت، وقبل أن تتلاشى مَرارتها، كنتُ أتابع قراءة منشور آخر، كان فيه برهان جديد على الثلّاجة الملآى. تعريفٌ فلسفي خالص للحُرّيّة، يبدأ بسؤالكَ: هل يوجد في حياتكَ مَنْ تُخبره الحقيقة كاملة؟ وينتهي بنتيجة: إن كان هذا الشخص موجوداً، فأنتَ شخص قويٌّ وحُرٌّ.. حُرٌّ بكل ما في الكلمة من معنى.

انصرف الحديث بنا بعدها إلى شؤون الحياة العامّة، وسألتُ الأصدقاء، بالمناسبة، عن حال التعليم في فلسطين، فقال كل واحد منهم رأيه فيها، وظلّت خلود ساكنة، وحين استفسرتُها عن رأيها، علّقت ساخرة:

- الأُمّ مدرسة، إذا أعددتَها، أعددتَ شعباً، زَيْ ما انتَ شايف!

وما نيل المطالب بالتّمنّي، ولكنْ، تُؤخَذ الدنيا، برضه زَيْ ما انتَ شايف!!

ضحكْنا من قلوبنا، وفي غمرة ضحكاتنا غافلتْنا خلود، وانسحبتْ خارج المقهى، تشدّ خفية على عينَيْها، لتُحرّر منها الدموع التي حبستْها هي حين بكيْنا نحن.

مشهد ٣٠/ رصاص حَيّ، وأشعار لا تموت

عدْنا إلى المعرض، ليخيب ظنُّنا، فقد كان فضاؤه لا يزال يغصُّ بجمهوره. انصرف كل واحد من الأصدقاء إلى شأن، واتُّجهت أنا نحو قاعة، خُصِّصَت للندوات، عند مدخلها صادفتُ نوال، التي عرّفتْني إلى نداء يُونُس، الإعلامية التي

ستؤطَر القراءات الشِّعْريّة المرتقبة بعد غد في بلدة عنبتا، وهو اللقاء الذي سأشارك فيه إلى جانب الشاعرَيْن زهير أبو شايب، وحسن مريم. رتّبت مع نداء تفاصيل المشاركة، وأعلمتْني هي بمكان التئام المجموعة، وساعة انطلاق الباص.

أكملْنا متابعة الندوة، ثمّ قصدنا إلى المقهى الأدبي، خائضين في موضوع الإعلام ومعركته مع الاحتلال، وتجربة نداء فيه، دُهشتُ من الأرقام التي كانت تسردها حول الموضوع، فمنذ سنة ٢٠٠٠ قتلت إسرائيلُ برصاصها الحَيّ ٢٥ صحفيًّا، وأصابت ٤٨٦ آخرين، ونفّذت أكثر من ٤٠٠ اعتقالٍ واحتجاز لصحفيّيْن، وترتفع حصّة إسرائيل من الدم ومن سلب الحُرّيّة كلّما أعطاها مناصروها في العالم ضوءاً أخضر.

سأنتبه في بُرْهَة تأمُّلٍ أنّ دهشتي ليست من الخبر وأرقامه، ففي الذاكرة أخبار وأرقام أفظع من هذا بعشرات الأضعاف، لكن الدهشة كانت من الانتباه لمراوغة الزمن واحتياله على وعينا، فكأن الإجرام الصهيوني منقولاً في الأخبار وعبر شاشات التلفزيون بصورة يومية متواترة، تجعل حواسّنا متبلّدة حياله، حاجبة عنّا فظاعاته، فنصير نرى ذلك الإجرام، ونسمع عنه بالتقسيط، ونحن منهمكون في لحظتنا الآنية، هكذا تغدو الحقائق الصادمة مع الوقت معلومات عابرة في لحظاتنا العابرة، فإذا أوقفنا صوت جرسٍ يُضْرَب أو صراخ حَنْجَرَة للانتباه؛ وَعَيْنا لحظتئذ هول الجملة.. إسرائيل تقتل كلّ سنة صحفيَّيْن اثنَيْن على الأقلّ، وتصيب ثلاثين، ولا تقنع بأقلّ من خمسين محتجَزاً في زنازينها، بهذه الصيغة، خرجت كلمات نداء سريعة، بنبرة تقرير يلسع السمع، ويكوي بالصوتِ الحَيّ الوعيَ الغافلَ المتشاغلَ.

شاع صمت لوقت قصير، ثمّ تحوّل بعده الحديث إلى شؤون الحياة، فتعرُّفت خلاله على نداء شاعرةً تُغرّد في المجاز كهزار حُرّ، وتسحب حروف الأنوثة الغافية من شِعْرها، تُلْقي بها في بحيرة الليل الشِّعْريّ، ثمّ تعبر برشاقةِ غزالةٍ جَذْلَى جسراً لامرئياً بين هَجْسٍ رفيفٍ كأنينِ الهواء، يُمزِّقُه رصاصُ حَيّ، وصراخٍ عاصفٍ، تحبَلُ به غيماتٌ، تُزهر فيها أشعارٌ، لا تموت.

مشهد ٣١/ "لأن الكبار كلهم كانوا ذات يوم أطفالاً"

في قلب المعرض، يمكنكَ إذا ما الجوع داهمكَ أن تصيب قسطاً من الأكل عند صاحب كشك يبيع ساندويتشات الفلافل، وقد تجد نفسكَ تطلبُ أكثر من حصّة واحدة، لتعالج الجوع الذي يزداد تهيُّجا مع كل فنجان قهوة، يدعوكَ إليه بين حين وحين كل مَنْ يصادفكَ أو تصادفه. ازدردتُ حصَّتَيْن دفعة واحدة، وبحثْتُ عن مكان استرخاء.. وحين لم أجد واحداً تسلّلت إلى الخارج، وسرتُ في الأرجاء القريبة، علَّ المشي ونسيماً رطباً يصرفانِ عنّي خمول الشبع، خلال ذلك، وجدتني أنزل نحو حرش قريب، هناك تحت ظلّ صغير لشجيرة يافعة افترشتُ سترتي، واستلقيتُ على ظَهْري، ناظراً فوق، إلى السقف الأزرق اللامحدود، حيث الغمامة الوحيدة المعلّقة كانت تشبه الوسادة.. أغمضتُ عينَي لثوانٍ، ولم أفتحهما إلا بعد نصف ساعة أو يزيد، على أصوات قريبة لأربعة فتية، كانوا يتجوّلون في

الحرش. تابعوني بنظراتهم المستغربة من رجل ينام في العراء، لعلهم حسبوني أوّل وَهْلَة جثَّة هامدة، وزاد توجُّسهم أكثر حين حيَّيتُهم بلكنة بدت غريبة لهم؟.. لحظتها فكَّرت لو أني مثّلت دور جسم مقذوف إلى هنا من بلد بعيد، أو شبح من الأشباح التي تتجلّى في النهار، لكنتُ نجحتُ في الدَّوْر. ظلّ الفتية متسمِّرين في مكانهم، تأخذ الدهشة بألبابهم،،

- معكم (عبّود) المغربي.. من المغرب.

بدا الصغار وقد استأنسوا بالصوت الاستعراضي والابتسامة المتودِّدة، فانبسطت ملامح وجوههم. ثمّ اقتربتُ منهم أكثر، ومددتُ يدي، أصافحهم واحداً واحداً.

كانوا تلاميذ ينتسبون إلى صفّ واحد، أعمارهم بين التاسعة والعاشرة، وصلوا إلى هنا سيراً، قادمين من قرية مجاورة، يريدون زيارة المعرض، أمطروني بأسئلتهم، وسألتُهم سؤالاً واحداً: ماذا يحلم كل واحد منهم أن يصير حين يكبر؟ فكان جوابهم موحَّداً، جوابٌ جفَّت بعده أسئلة كثيرة على لساني، فما نفع أيّ كلام آخر أمام أحلام أطفال تحت احتلالٍ يرفع الجدران، يدسّ الألغام، وينصب الأسلاك الشائكة.

واصلتُ السَّيْر معهم حتّى دخلنا المعرض، بين الأروقة، تابعتُ بريقَ عيونهم وهي تتفحَّص الأرجاء، وتَهَيُّبَ أياديهم وهي تتصفَّح الكُتُب. وعند رواقٍ يعرض كُتُباً للأطفال، لمحتُ كتاباً أعرفه، سألتُهم إن كانوا قد قرؤوه أو سمعوا عنه، فكانت إجاباتهم بالنفي. اشتريتُ منه النُّسخَ الخمس التي كانت معروضة، وأهديتُ كلّ واحد منهم نسخة، مُستبقِياً واحدة عندي.

(.....)

حُلْم الفتية كان أن يصيروا رحّالة يجوبون الآفاق،

واسم الكتاب كان الأمير الصغير، للرّحّالة الطّيّار أنطوان دو سانت أكزيبيري.

أمّا أسماؤهم التي سألتُهم عنها قبل توديعهم، فكانت: ياسر وغسّان، وخليل ومروان.

مشهد ٣٢/ لذّة ومتعتان وثلاث غنائم وديوان شِعْر.

قضيتُ الطائفة المتبقّية من نهاري بين أرجاء المعرض، أبحث عمّنْ أعرفهم ومَنْ لا أعرفهم، فأمّا الذين أعرفهم، فكأني كنتُ أجد في مطالعة دهشتهم من وجودي بينهم لذَّة بكْراً غير مُجَرَّبة، لم أعرف لها نظيراً سابقاً في وجداني، أحقّق بها يقيناً، ظلّ مذبذباً بين الدقائق والثواني.. لذّة أكاد أسمع صوت (محمود درويش) ينطق بها على لساني: أنا الآن هنا (أنا هنا, وأنا أنا، وهُنا هُنا، إني أنا، وأنا أنا، وهنا أنا، وأنا هنا، إني هنا، وأنا أنا..)، وأمّا الذين لا أعرفهم، فكنتُ أجد في التعارف معهم متعَتَيْن، واحدة في البداية، حيث النَّفْس متحرِّرة من فرائض اللياقة الباردة، ومن ذاك التّوجّس المسبّق الذي يكون عادة في أوّل حديث الناس

إلى الناس، فلا تكاد النَّفْسُ تُلقي بالاً لردّة الفعل الأولى حتّى تلفيها قد جاءت على هواها في الاستقبال والتفاعل، ولا تجعل بينها وبين مُحَدِّثيها فواصل أو مسافات خلال ما يكون مبثوثاً في أطراف الكلام من بوح حقيقي، لا يحصل عادة إلا بين الخُلَّص من الخلّان الأوفياء، وتلك هي متعة الغريب القريب للغريب، كما ورثنا وصفها عن (امرئ القيس).

وأمّا ثانية المتعَتَيْن، فما كان يحصل بعد أن تنتهي المحادثات، ويتفرّق الجمع، فتعلق بالروح قطعةٌ جديدة طريفة، يصير لها مع الأيّام شأنٌ كشأن البذرة التي يتلقّفها التراب من ريح عارضة، ثمّ لا تلبث طويلاً حتّى تطلع منها في غفلة من جوارها نبتةٌ فريدة، لم تكن رُئيَت من قبل...

انتهى تَطوافي في المعرض هذا المساء بغنائم صغيرة، لكنها عندي ذات شأن، منها تميمة جالبة للحظّ، أهدتنيها امرأة ستّينيّة بعدما أهديتُ لحفيدتها النسخة الخامسة التي تبقّت عندي من كتاب الأمير الصغير، وصورة (سيلفي) مع ثلاثة شبّان، ذكر لي أحدهم بنبرة فخر أن أصول أجداده تعود إلى سلالة مغربية من أهل فاس، ووعدٌ من صديقة مَقدِسية أن تصطحبني في سيّارتها ذات الترقيم الإسرائيلي إلى القدس، ثمّ أخيراً كتابٌ صغير في مقتبل الشِّعْر ممهورٌ بتوقيع صاحبته التي بدت في يفاع العمر.

لذّةٌ ومتعتان وثلاث غنائم وديوان شِعْر، وما لا حصر له من الانتباهات العابرة السائرة سريعاً فوق خطّ الزمن، يدفع بعضها بعضاً، فتتساقط تباعاً في (الآن) جاعلة للوقت فائضَ امتدادٍ لا يُحصَر، وفيضَ كثافةٍ لا يُضاهَى.

اليوم الرابع

مشهد ٣٣ / فرح الماء

فيما أصبحتُ مستأنساً أكثر بعدما صرتُ أستيقظ دون أن يدهمني ذلك الشعور المباغت الذي يقع لنا حين تُنكِر عيوننا في الصباح مكانَ رقادنا؛ سأنتبه إلى أن شمس صباح اليوم الرابع لطيفة، ونسائمه التي هبّت من وراء نافذة الغرفة تصل مشبَعة بطراوة، ذكّرتني بطعم اليود في الهواء الذي نتنسّمه على مشارف المُدُن البَحْريّة.. تكاسلتُ في مغادرة الفراش، لاطمئناني إلى أن الوقت كافٍ لِلَّحاق بطاولَة الفطور الذي يقدّمه الفندق، وموعد الحادية عشرة صباحاً مع رائد ما زال بعيداً بساعة ونصف.

في حمّام الغرفة، استسلمتُ بانبهار خاطفٍ لدفق الماء البارد الذي كان يقذفه رشّاش الدوش على رأسي ووجهي، فتتهاوى قطراته منسربة على الصدر، مُخلّفة عند القَدَمَيْن فقاعات صغيرة تتراقص قبل أن يجرفها المسيل نحو السيفون.

كثيرة جدّاً عاداتي السّيّئة، لكني لم أسمح يوماً أن تكون من بينها عادة الإسراف في هَرْق الماء، غير أني هذه المرّة أطلتُ المكوث، غير قادر على مقاومة تلك الخفّة الطافحة التي انتابتني وأنا أتابع الحُبَيبات المنهمرة بالآلاف، كأن هذا الماء لم يكن كأيّ ماء، وهو يتدفّق عليّ قادماً من ينبوع في الأجواف السّرّيّة التي تحبل بها هذه الأرض التي ليست كأيّ أرض.

على خُوَان الفطور، كانت أطباق الزيتون والحمّص والجبن واللبنة والفول مصفوفة إلى جانب سلطات الطماطم والخيار وقناني زيت الزيتون وعصائر البرتقال والجزر والشمندر.. مهرجان من الأشكال والألوان يفتح في جدار الشهية سبعين نَقْبَاً، يدخل منه الرامحون.. ملأتُ طبقي، وسحبتُ من طست كبير قنّينة ماء، وانتبذتُ مكاناً على طاولة في قاعة الأكل الخارجية، حيث الإطلالة ساحرة على الجزء الغربي من رام الله.. شربتُ أوَّلا كأس ماءٍ على الريق، كما هي عادتي، وقبل أن أشرع في تناول فطوري كانت حبيبات ماء بارد تصل من السماء، يُقَطِّرُها قطيعُ غيمات عابرة.. غادر الجالسون بقربي نحو الصالة الداخلية اتّقاء زخَّات العاصفة الصغيرة، وبقيتُ في مكاني أتعمَّد تحت المطر (النّيسانيّ) المباغِت مستعيداً شعور الخفّة الأولى الذي انتابني تحت ماء الدُّوش، باحثاً عن ارتواء كامل من ماء القنّينة الذي سكبتُ منه كأساً ثانية، ثمّ ثالثة، فرابعة.

زاهداً في كل شيء بعد هذا الانتشاء كله، مُنصِتاً إلى وقع الزّخّات على السطح الزّجاجيّ للطاولة؛ غادرتُ إلى الغرفة، وعلى وجهي ماء، وفوق شَعْر رأسي ماء، وفي جوفي ماء، ومن ذاكرتي إلى خاطري كانت تطفو كلماتُ الشاعر الذي سأزور ضريحه هذا الصباح:

"الماء فرح الحواسّ، وما يحيط بها من هواء.

الماء هو الهواء المقطَّر الملموس

المحسوس

المغموس بالضّوء."

مشهد ٣٤ / الباسط يُمناه

عند تمام الحادية عشر صباحاً نزلتُ إلى البهو، لأجد رائداً في انتظاري، تبادلنا من بعيد الضحكات اللئيمة إيّاها، ضحكات كأنها موروثة عن زمن أقدم من عمر صداقتنا.

في السّيّارة كانت القطعة الموسيقية التي تنبعث من قارئة القرص توحي لذاكرة الأُذُن بأُلفة سابقة، كان مقام الشّدْو عالياً بصوت السوبرانو المغربية سميرة القادري.

على أنغامها عبرنا في شوارع وأزقّة غسلتها مطرة هذا الصباح، وانتهينا إلى تلّة، يتربّع عليها بناء ضخم، يطلّ على كامل المدينة، كأنه يحرسها بجلاله من نَزَقٍ يسري في جسدها، ويحرّرها بسكونه من ضيق، يُطبِق على روحها.

ترجّلنا من السّيّارة، صاعدَيْن درجاً طويلاً، يعبر بين حوض ماء وأحواض تنبت فيها شجيرات مورقة ونبتات من أصناف شتّى.. في نهاية الصعود، كانت شاهدة القبر نصباً من الصخر الرّمليّ المائل إلى الصفرة، يرتفع أمتاراً بين حائطَيْن، يحملان عبارة إهداء: (من الوطن... إلى محمود درويش From Palestine … to Mahmoud Darweesh).

محمود يرقد هنا، محفوفاً بأنواع من أزهار جُلبت من أرجاء فلسطين.

سيستيقظ الصمت الأبدي في صوتكَ، إنْ أنتَ حاولتَ أن تقرأ ما يمكن لعينَيْكَ أن تلمحاه من حروف محفورة حين انكسار الضوء النهاري على نتوءات الشاهدة، ستقرأ عيناكَ:

(أَثَرُ الفراشة لا يُرى، أثرُ الفراشة لا يزول).

واقفَيْن على قبر الشاعر، كان صديقي يُتمتم كلمات ما، وكانت الذاكرة تعود بي إلى يوم مرّت عليه ثلاثة عقود، وقع فيه للمرّة الأولى بين يدي كتابٌ له. مُربّع القَطْع كان الكتاب، بغلاف أسود اللون صقيل الورق..

انحنيتُ على الشاهدة؛ ومن المحاولة الأولى، انتشلتُ من قيعان الذاكرة كلماتِ السطورِ السبعةِ من الصفحة السابعة في ديوانه السابع "محاولة رَقْم ٧"، تمتمتُ الكلماتَ كما حفظتْها ذاكرتي منذ ذلك اليوم القديم:

لماذا نحاول هذا السفر؟

وقد جرّدتْني من البحر عيناك،

واشتعل الرمل فينا،

والكلمات التي لم نقلها (تُعذّبنا) ([1])..

لماذا نحاول هذا السفرْ؟

وكل البلاد مرايا،

وكل المرايا حجرْ.

أكملنا الزيارة سائرَيْن نحو بوّابة المتحف، لنجده في انتظارنا على جدارية عند المدخل، باسطاً يُمناه، يوشك أن يصافح بها زائريه، يستضيفهم في حضرته، يُريهم ما يريد ممّا علق من ابتسامات في ألبوم وجهه العابر للأسفار والأقاليم، يقدّم لهم في فناجين غير مرئية ما يشبه طعم البُنِّ المغليّ على ما تبقّى من نارٍ في جمر المجاز، ثمّ يدعوهم إلى طاولة نَرْده، فيرمي في الهواء رمية واحدة، وقبل أن يرتدَّ إلى الصُّدفة قرارُها؛ يُعدِّل هو ربطة عنقه، وينسحب خفيف الوطء نحو ركن مكتبه أين تغفو سترته المَطوِيّة على ظهر الكرسي، وحيث قلمٌ من أقلامه الكثيرة يستلقي وحيداً فوق بياضٍ، يمتحن التأويلات، ويمتصُّ الفراغات التي يتركها الضوءُ الخفيف الهائمُ في المكان.

في زاوية من زوايا المتحف لمحتُ حقيبته، فتذكَّرت مقتولتي التي ترقد جثّتها الآن في غرفة الفندق مستريحة إلى الأبد من سفر واحد كان قصيراً، بينما التي

أمامي بموديلها الخمسيني واصلتْ تصميمها على البقاء، لتعود أخيراً إلى هنا جنب مرقد صاحبها، شاهدة على أن الوطن ليس أبداً حقيبة...

مشهد ٣٥/ انشراح وأخواتها

صامِتَيْن أنا ورفيقي؛ ودَّعْنا الشاعرَ الباسطَ يُمناه، وغادرنا، نحملُ معنا أثراً من سكينة المكان التي علقت بالوجدان، وبقيةً من صوت محمود الذي ظلّ يتصادى في آذاننا كمُنَمْنَمَة طافية فوق الماء.

في اتّجاه رام الله التحتا كانت العمارات الجديدة المستحدَثة تصطفّ جنباً إلى جنب مع المنازل القديمة ذات الحدائق والطابقَيْن. وفي السماء، كانت الشمس في وسط السماء برّاقة من وراء ما تبقّى من غيم المطر الذي عبر. حين وصلْنا ساحة الدّوّار، داهمت أسماعنا جلبة المكان من حركة الناس وضوضاء السّيّارات، وبعد لأيٍ، عثرْنا على منفذ، يقودنا إلى مكان غير بعيد، حيث يمكن أن نريح وننشرح.. فكانَ لنا ذلك في أحد أقدم المقاهي في رام الله من التي يعود عمر كثير منها إلى أكثر من ستّين سنة. هو مقهى الانشراح، وأوّل ما أعجبني فيه اسمه، ربّما لما أحدثه وقعُ الحروف من ارتدادات نحو تعابير تنتمي إلى زمن الطفولة المدرسية، هكذا فسُّرت الأمر في خاطري، قبل أن أنتبه إلى أن (انشراح) كان أيضاً اسماً لإحدى معلّماتي في الصفوف الابتدائية..

ربّاه! ما الذي يمكن أن تكون قد عانتْه في صمت تلك المسكينةُ القادمة من (الغرب البعيد) إلى أقصى الشرق، لتقضي أولى سنوات عملها معلّمة في مدرسة ابتدائية، يَحلق فيها تلاميذُ الصّفّ الأخير ذقونهم، في حَيّ شعبيّ، في مدينة حدودية، سكّانها يلهجون كما جيرانهم الجزائريّيْن، ويغضبون أسرع منهم..

في انشراح، طافت في خاطري أسماء بعض أخواتها من المقاهي التي عبرت في سيرتي.

مقهى (البدوي)، أين شربتُ، وأنا يافع لم أبلغ الحلم بعد، أوّل قهوة مضغوطة، تجرَّعت مرارتها كاملة، كي أخيِّب أملَ الشماتة في نظرات النادل الذي استصغرَني.

مقهى (الزهور) أين شربتُ أوّل سيجارة غير بريئة، بعد بلوغ الحلم بسنوات، واقعاً يومها في شماتة رفاق السوق الذين زوَّدوا العيار عمداً، حتّى استحالت الزهور أشواكاً في الدماغ.

مقهى (الأطلال)، أين تصالحتُ مع مطوّلات أُمّ كلثوم، وأَنصَتُّ إلى حشرجات العود حين تنهشه أصابع فريد الأطرش، وخفتُ مرّات أن تفيض الروح من نجاة قبل أن تُكمِل الكوبليه.

مقهى لم يكن لها اسم، فسمّيناها (الكوليرا)، فيها نضحتْ شجيرتي الشِّعْريّة ورقياتها الأولى قريباً من تجاعيد المتقاعدين، وزفرات الموظّفين، وقهقهات

الحشّاشين، وضوضاء المقامرين، وذوي السوابق، والمجنّدين الهاربين إليها من فوق سُور الثكنة العسكرية القريبة.

(....)

أخوات كثيرات لانشراح جئْنَ بعدها إلى مدارس الحَيّ القديم، بعضهنّ نفذنَ بجلودهنّ، وأخريات مكثْنَ وتعلّمن منها كيف يسرنَ في مضايق القبول الاجتماعي حتّى يدفعنَ التلاميذ إلى عبور المراحل قبل أن ينبت الشَّعْر في ذقونهم.

وأخوات أكثر لمقهى انشراح، عبرت فيهنّ سِيَرُ الأشخاص، فكنَّ شاهدات على سيرهم فوق سراطات المصائر مُخلِّفين في أرجائها سحائب تبغهم، وأصداء زفراتهم وقهقهاتهم، وصور لواذهم إليها فراراً من وطأة الوقت في البيوت والمكاتب والمخازن والمخافر والثكنات..

في انشراح، أصبتُ أنا ورائد قهوةً عربية بالهيل، ونرجيلة بطعم النعناع، ونميمة بريئة عن زوّار المقهى من العوامّ والمثقّفين.. ثمّ غادرنا نُكمِل تسكُّعنا، خائضَيْن في الوجوه الكثيرة للشبه الأمومي بين سِيَر المقاهي وسِير معلّمات الصفوف الابتدائية.

مشهد ٣٦ / باقون ما بقيت الحياة

أوصلَني رائد، وغادر، أوصلَني إلى المكان ذي الزمن الخاصّ، حين تعود إليه من جديد، ولو بعد حِينٍ قصير؛ تشعر كأنكَ غبتَ عنه طويلاً. فيه تخرج من بُعْد أفقي مألوف في الزمن، لتقع في بُعد عميق، تنقاد إليه، ويستغرقكَ، زمن هذا المكان كلُّه آنٌ مسترسِلٌ، لا يَنْبَتُّ إلا إذا خرجتَ منه إلى أزمانٍ غيره من الأمكنة.

إلى المعرض أوصلَني صديقي، وغادر.

سائراً في الممرّات المزدحمة، ممتلئاً بإحساس لطيف، لا هدف لي سوى المشي قريباً من الناس وخلالهم، الناس الذين أرادت لهم مؤامرةٌ كونية غير سرّيّة ألا يكونوا هنا، أرادتهم تحت التراب أو في أمكنة أخرى ذوات أزمان أخرى، ومنذ أكثر من قرن والمؤامرة مستمرّة، لا هي توقّفت، ولا هم انقرضوا، ولا انكسروا، ولا غادروا.. إنهم باقون هنا، يقاومون الاحتلال، يكرهون الموت، يحبّون الحياة، يكسبون القوت، يشتمون النظام، يمارسون الغرام، يتزوّجون عن حبّ وعن غير حبّ، يغرسون الشتلات، يُنجبون الأولاد، يذهبون إلى السينما، يُنشدون الأشعار، يكتبون على الجدران، يعزفون الموسيقا، يرقصون الدبكة، يقرؤون الإنجيل، يقرؤون القرآن... فبأيّ حقّ يريد لهم مَنْ يتفرّجون عليهم من وراء الشاشات ألّا يكونوا إلا جرحى معطوبين أو صرعى شهداء.

بينهم، مفكِّراً فيهم، يعترض طريقي هذان، ويصيبني كتف ذاك، وتصطدم بي حقيبة تلك، وتصلني من عيون الصغار الذين يملؤون المكان إشارات سرّيّة عن أجيال قادمة ممتلئةً بالحياة والتّحدّي والأمل.

قضيتُ ما تبقّى من ساعتي رفقة وائل، نسيحٍ في المعرض، وحين رجوعي إلى الفندق كانت شمس العصر في الأفق مهترئةً تغالب بما تبقّى فيها من وَضَحٍ جريح، كي تطردَ بقايا الغيم الذي لم تُقَطِّره مطرة الصباح. بينما لم تفارقْني تفاصيل ما رواه لي وائل عن سلمى والبحر.

مشهد ٣٧ / سلمى والبحر

كان وائل ضمن وفد مكوَّن من خمسة أفراد، يمثّلون بلدانهم في برنامج تدريبي، يتضمّن لقاء مع طَلَبَة أمريكيّيْن، حين اقترب وقت مداخلته، رنّ هاتفه، كان الرَّقْم الذي ظهر على الشاشة لزوجته، ارتبك، ولم يدرِ ما يصنع، فالتوقيت غير مناسب أبداً والجُمل التي رتّبها في ذهنه، كي يكون لمَداخلته الوقعُ الذي يريد يستدعي ارتجالها تركيزاً كبيراً.. لم يكفّ الهاتف عن الرنين، فأدرك ألا مناص من الرّدّ. أمام الميكروفون اعتذر لجمهور القاعة، مستئذِناً في أقلّ من دقيقة زمن، ثمّ غادر إلى الخارج، للرّدّ على الاتّصال.

في الآن ذاته، مع فارق التوقيت، في الجهة الأخرى من الأرض، هناك، في فلسطين المحتلّة، كانت طفلة فلسطينية تغرق منذ ساعة في نوبة بكاء هستيري، وحتّى بعدما جفّت عيناها من الدمع، لم يتوقّف صدرها عن شهق أنفاسٍ سريعة متقطّعة. جرّبتْ أمُّها الطُّرُق كلَّها، كي تنتشلها من الحالة، لكنْ، دون جدوى، إذ كيف يمكن أن تُقنِع طفلة في الخامسة من عمرها قضت أسبوعاً في انتظار رحلة، سترى فيها البحر للمرّة الأولى في حياتها، ظلّت طيلة الأيّام السبعة تلاعب الأغراض الجديدة في حقيبتها الصغيرة، تُرتّبها، ثمّ تعيد نثرها من جديد.. الفوطة الملوّنة، لباس السباحة، ولُعَب الشاطئ، أسبوع من أحلام اليقظة اللذيذة، رأت فيها نفسها أمامه، تطأ بقَدَمَيْها الصغيرَتَيْن رملَهُ المبلّل، وتمسك بأصابعها أوّل موجة تأتي نحوها، وفي آخر النهار تبني قصراً صغيراً من الرمل، تهديه لأطول الموجات التي لم تصل بعد.

كيف يمكن إقناع طفلة بأن هذه الرؤى والأحلام التي خبّأتها في قلبها الصغير تتبخّر الآن أمام عارضة حديدية ومربّعات من الإسمنت، يقف عندها رجال يرتدون زيَّ الحرب، ويحملون أسلحة أكبر كثيراً من لُعب الأطفال.

- "ماما، لماذا لا يمكننا أن نُكمِل الطريق إلى البحر؟ لا بدّ أن تقولي لهم شيئاً".

- لا يمكننا، حبيبتي، يجب أن نعود.. لقد أغلقوا الحاجز..

- لماذا يُغلقون الحاجز؟.. أليس البحر كبيراً وواسعاً كما شاهدتُهُ على التلفزيون؟

لم يتبقّ للأمّ غير صوت الأب حتّى لو كان في أمريكا، تستنجد به، ليهدأ قلب الصغيرة قبل أن تعصره الأسئلة الكبيرة والبكاء الخانق.

- بابا، لماذا يضعون الحاجز في الطريق إلى البحر؟

(......)- .لأنهم لصوص وقطّاع طُرُق، يا بابا.. لكنْ، لا أحد يستطيع أن يسرق البحر على الدوام، وفي يوم سيأتي لا محالة لن تبقى الحواجز على الطريق، سنذهب فيه جميعاً إلى البحر.. وسنجده هناك، فلا أحد يستطيع أن ينقل البحر من مكانه..

عاد إلى القاعة، وخاطب الحاضرين: "قبل أن أجيب عن أسئلتكم، اسمحوا لي رجاءً أن أطرح عليكم سؤالاً:

- ما هي أحلامكم للمستقبل؟ جاءت الإجابات كثيرة ومختلفة: "جرّاح"، "موسيقي"، "رائدة فضاء"، "مهندس"....

- اسمحوا لي بسؤال ثانٍ: ما هي خططكم لعطلة الصيف؟ كانت الإجابات متنوّعة.. "رحلة إلى الخارج" "مخيّم وسط الغابة" "على شاطئ البحر".

- لمَنْ يُخطّطون للذهاب إلى البحر، أقول لكم: توجد في مكان ما من هذا العالم طفلةٌ تحلم.. تحلم بالذهاب إلى البحر، لكنها لا تستطيع، لأن دولة احتلالٍ تضع في طريقها حواجز مدجّجة بالسلاح.. طفلة اسمها سلمى، من فلسطين، تذكّروها أوّل ما تقفون قبالة البحر.

مشهد ٣٨ / زجاج وفولاذ

لم أكد أستريح على السرير حتّى رنّ هاتف الغرفة، كانت المكالمة من موظّف الاستقبال، يُخبرني أن ضيوفاً ينتظرونني في البهو. نزلتُ من فوري، لأجد صديقتي المَقدِسيّة ومعها صديق لها، وعلاقتي بكلَيْهما من الصداقات القديمة التي تحقّقت وتحرَّر يقينُها على هذه الأرض بعد أن ظلّت لسنوات حبيسة العالم الافتراضي.

بدا الاستعجال واضحاً على ليديا، فلم تُمهلني كثير وقت، لأتعرّف أكثر على يُوسُف، إذ بسبب أن سيّارتها ذات الترقيم الإسرائيلي قد تعطّلت، فسيكون علينا أن نذهب إلى القدس بالباص، وهو أمر يحتاج إلى توفير كل دقيقة وثانية.

استوقفْنا سيّارة أجرة في اتّجاه موقف للباصات، حين وصلناه، وجدنا واحداً يوشك على الانطلاق نحو حاجز قلنديا.

- ولكنْ، يا ليديا، ليس بحوزتي غير بطاقة، أظنّها لا تسمح بتجاوز مناطق السلطة الفلسطينية، هل تظنّين أنها تفي بالغرض؟

- لا أعرف.. في الحقيقة، يا عبّود، هي لا تفي، لكنْ، حتّى أفي أنا بوعدي معكَ، سيحتاج منّي الواقع إلى محاولة، وسأحتاج منكَ إلى عيون من زجاج، وأعصاب من فولاذ.

وصلْنا الحاجز الفاصل بين الضّفّة والقدس، حيث يكون عليكَ أن تمرّ عبر بوّابات حديدية، تُشعركَ لبُرْهَة من الوقت أنكَ وراء القضبان، قضبان تشبه السلالم الواقفة، تنفتح أمامكَ مُغلِقة عليكَ طريق الرجوع، كأنها تسوقكَ كفريسةٍ

مَقَودَةٍ نحو المسلخ. في آخر هذا السير القسري تنتهي إلى غرفة واطئة السقف، متقاربة الجدران، إلى حدّ تستنكر رئتاك الهواءَ الراكدَ فيها. وفي نهايتها تجد نفسكَ أمام الجندي الإسرائيلي الذي يفحص هويتكَ من وراء عارضة زجاجية مُدعَّمةٍ بالفولاذ، مضادةٍ للرصاص، مُخفِّفةٍ للخوف.

سريعاً عبرت ليديا أوَّلا، ثمّ حان دوري، فقدّمت للجندي جواز سفري وبطاقة التصريح متوقِّعا النتائج كلها. أطال الجندي النظر في صفحات الجواز وما على وجه البطاقة وظَهْرها من أرقام، ثمّ فحص عينَيّ بِحَدَقَتَيْن تبحثان عن اهتزاز ما، حين ضغط زرًّا، وأشار لي بالمرور، لم أصدِّق الأمر. ثمّ سلَّمتُ بعدها أن تمرين أعصاب الحديد قد جاء بنتيجة.

بعد زمن قليل الدقائق كثير الأنفاس، صار ثلاثتنا وراء الحاجز، نستنشق هواء جديداً.. نستقلّ الباص، نفتح زجاج النوافذ، فيعرض لوجوهنا نسيمُ الريح القادمة من المدينة المقدّسة، فيما ظلّ خلفنا جنديّ الاحتلال في قفصه الزّجاجيّ الفولاذي الواطئ يغصّ بالهواء نفسه الذي لا يبدو أن مراوح المكيّفات كافية، كي تشفط منه العطن.

مشهد ٣٩ / "الأرض بتتكلّم عربي"

ينطلق الباص من حاجز قلنديا نحو القدس، فتنطلق معه حواسَّك في استشعار دقائق المشهد المسرع خلفكَ بجزئياته كلها، الخَفيّ منها قبل الظاهر.. في تلك الغمرة من الهواجس يرتجّ وعيكَ من الأعماق، كي يطرد فكرة، يُراد له أن يُسلِّم بها، فكرة أن ما سيراه من هذه النقطة هو فلسطين التي لا يمكن أن تُستعَاد، فلسطين المسروقة إلى الأبد.

ستحتاج إلى مهلة من الوقت قبل أن تدرك أن حواسَّك قد أطلقتْ أجهزة استشعارها في البحث عن الأثر العربي في المكان، فبعض هذا الأثر تجده صامداً بارزاً كما كان قبل النكسة، وبعضه تراه مطموراً إلا قليلاً منه، وبعضه الآخر تلحظه متوارياً خلف الأثر الإسرائيلي الطارئ.. وبعضه تستنقذه بعينَيْكَ من براثن التزييف الذي طاله عمداً من مهندسي الأسطورة الصّهيونيّة.

مروراً بأحياء بالضاحية وبيت حنينا، ثمّ شعفاط، فالشيخ جرّاح والمصرارة، كان الباص يعبر من طُرُقات وشوارع صغيرة، وكانت العين لا تُصدِّق ما ترى..

يتوقّف الباص في محطّته الأخيرة، ولا تتوقّف حركة حواسَّك الممتلئة بالمكان ومعالمه ورمزياته الكثيرة الكثيفة؛ لتنتهي أخيراً إلى الانبهار من صمود المكان وأصحاب المكان.. أسطوري هذا الصمود الفلسطيني رغم هول وقوّة المؤامرة الكونية التي جُنِّدت لها أعتى وسائل المحو والهدم والاقتلاع والتزييف المادّيّ واللامادّيّ..

سائراً على قَدَمَيْكَ فوق أرض المكان، وما إن تنعطف يميناً في اتّجاه باب العامود، حتّى تتراءى لعينَيْكَ لافتات عربية الحروف معلَّقة على واجهات صفٍّ

من المحلّات التجارية، وتتناهى إلى سمعكَ أصوات المارّة وصيحات الباعة، وكأن المكان يجيب وعيكَ المتوثّب، وينهي حَيْرته، فهذه "الأرض بتتكلّم عربي".. وستبقى.

مشهد ٤٠ / سور القدس الشاهق

ثلاثة على طرف الرصيف في شارع طويل، مازال يحمل اسم السلطان سليمان، للحظات، ثمّ أسرع الاثنان في نزول المدرج المُفضي إلى البوّابة، وبقيتُ في مكاني، متخلِّفا عنهما، ربّما لحاجة عينَيّ إلى مهلة أطول لتصديق المشهد، وحتّى حين ناديا عليّ، كي ألحق بهما، لم أستجب، كأنما فاتهما الانتباه إلى الفرق بين العادة المتكرّرة المطروحة معانيها في الطريق، والتجربة الأولى المولِّدة لأقوى وأقصى درجات الدهشة الهادرة. فاتهما أنهما كانا يسيران في مكان، سارا فيه دائماً حتّى صار غير مَرئي أو يكاد، بينما كنتُ أرى للمرّة الأولى سور القدس القديمة، ومعه أكبر أبوابها، وأبهاها.

قبالة باب العامود الذي تلتفت منه القدس نحو دمشق، لا أحد باستطاعته الإفلات في تجربة المرّة الأولى من جبروت التاريخ العالق بمعالمِ المكان، القوس العتيق، الباب الخشبي الضخم ذي المصراعَيْن المدعَّمَيْن بقِطَع الحديد أو النحاس، والأحجار الضخمة المنحوتة، يخالط بياضَها سوادٌ خلّفَتْه على أطرافها القرون التي مرّت من هنا، والطاقات التي تُتوِّج قمّة السور، كاسرة رتابة التصفيف في البناء، مُسبِغَة عليه مسحة من عمل الصانع المزخرِف، لا قاطع الأحجار فحسب.

ومن غير الألوان الظاهرة التي تُهيِّجها في الأحجار شمسُ العصر المرهقة؛ تتسمّع الأُذُنُ في المكان أصداءَ الوقع من خُطى الأنبياء المُتَّبعين، والملوك المُرصَّعين، والحُجَّاج المُتشَفِّعين، والغزاة في الجيوش التي حاصرتْ وفتحتْ، والجيوش التي حاصرتْ واندحرتْ، والتّجّار في القوافل قادمة من ساحل الغرب، أو واصلةً من تلال الشرق، أو نازلة من سفوح الشمال، أو ناجية من براري الجنوب.

هو ذا سور المدينة المقدّسة المدنّسة الذبيحة - أرى عند أحد برجَي بابه اللّذَيْن يجعلانه شبيهاً بقلعة مجموعة من جنود وجنديات الاحتلال يُفتّشون مَنْ يرتابون في أمره، وقريباً منهم غير آبهة بحضورهم تجلسُ القرفصاءَ عجوزٌ قرويةٌ، تعرض للبيع كمشات زعتر وربطات معدنوس.

تحت قبّة البوّابة كان الصديقان في انتظاري، ومن هناك تابعْنا مسيرنا في الحال، حيث ستنكشف للعين أسرار العالم الذي كان يحجبه السور بعلوّه الشاهق.

مشهد ٤١ / روائح وأرواح.

أكثر الأسرار شراسة أو طرافة تلك التي نكتشف أنها كانت كامنة لنا على مقربة شديدة من تفاصيل معيشنا المتوقّع.. بهذه الومضة استقبلتُ المشهد الذي يُربِكِ الذاكرة البصرية للوهلة الأولى، كأن الأرض ببلاطها الحجري قد تزحزحت

في طرفة عين، فصار المشهد كأنه من سوق السّمّارين في مراكش، أو سوق طريق القناصل في الرباط، أو سوق جامع الزيتونة في تُونُس، أو خان الخليلي في القاهرة، أو سوق البازركان في طرابلس الشام.. كأن أرواح تلك الأمكنة، شقيقاتِ هذا المكان، تحلُّ هنا مجتمعة وجَلِيَّة، فَمَنْ رآها في بلادها، ثمّ جاء هنا، التبس عليه الأمر أوّل الأمر، فكأنها هو، وكأنه هي.

- وقوفاً بها، صديقَيَّ، لبُرْهَتَيْن!! علَّ الوقوف يُعيد للعين توازنَ صوابِها الذي تفقدُ في بُرْهَة الاشتباك الأوّل!!

تابعْنا السير نحو باحة، يتفرّع منها طريقان، أحدهما طريق الواد، والثاني سوق باب خان الزيت، وخلال كل واحد منهما يمتدّ صفّان متقابلان من الدكاكين التي تبيع أغراض المنازل وحاجيات الناس. على جانبٍ مقهى شعبي، وعلى آخر محلٌّ لبيع المرطبات، وبينهما اصطفّت بسطات وعربات باعة الحلوى والعصائر والفواكه والأعشاب والخضر، كلٌّ يصيح على بضاعته، بما يملأ المكان بعروبة مجروحةً خارج السور، تعود هنا داخله، متأجِّجَةً في وجوه الناس وأزيائهم وأخلاطٍ من روائح القهوة والهيل والنعناع والزعتر والزيتون مُخلَّلاً وغير مُخلَّل، وشاميّات اللوز والفستق والعسل، وكعكٍ مَقدِسيٍّ يوشك أن ينضج في الفرن القريب.

أخذنا في اتّجاه خان الزيت، في زقاق يزدحم بالمارّة ومعروضات التّجّار من الألبسة، والسّجّاد، والفخّار، والمجوهرات، والمطرّزات، والألبسة الفلسطينية التّقليديّة، وصواني الكنافة التي تختبر ذوق العين قبل أن يختبر اللسان طَعمَها، والمنحوتات اليدوية التي يُحوِّل فيها الإزميلُ خشبَ الأبنوس إلى قصيدة شِعْر.

كان المارّة كُثْراً وأخيافاً، فيهم أبناء البلدة من الأعمار كلها، وفيهم السّيّاح الأجانب وجماعات الحجّاج المسيحيّيْن. الكلّ يسلك الطريق في الاتّجاهيْن، ومنهم مَنْ يطلع من الأزقّة الفرعية، أبناء البلدة بشموخ مُطمئنٍّ يتقمّص روح المكان، والأجانبُ والحجّاج بجذلٍ من تَنَسُّم روائحِه، والكلُّ على إيقاع يبثُّ فيه حركةً متماوجة، تُخلِّف جَلَبَةً مُحبَّبَة، ثمّ بين حين وآخر يظهر واحد أو اثنان من أصحاب الذوائب عند الأصداغ، واللِّحى الطويلة، بلباسهم الأسود، وقبّعاتهم المستطيلة، فيحدِثُون بظهورهم في المشهد نشازاً صارخاً، تزيد من حِدَّته خطواتُهم السريعة المتوجّسة، كأنَّما يفرّون من شيء يؤزُّهم من خلف.. شيء كأنه روحٌ، أو كأنَّه رائحة.

مشهد ٤٢ / ليت الفتى في القدس حجرُ

الحجارة التي صقلتها خطوات المارّة ظلّت كما هي متشابهة، تتابع نَسَقَهَا إلى المنتهى، أمّا الطريق الذي انتهى بنا إليه خانُ الزيت، فكان مختلفاً، تسير عليه العيون قبل الأقدام منذ سار عليه تحت ضرب السياط رجلٌ في الثلاثين من عمره حاملاً خشبةَ صليبه على ظهره.

الطريق كما هو، والرجل مات أو ارتقى إلى السماء، لكن الحاملين صلبانهم تتابعوا منذ عشرين قرناً خلت، أوّلهم كان فلسطينياً، وآخرهم شعب من الفلسطينيّيْن.

لطريق الآلام في قلب القدس رَهْبَةُ حُزنٍ تغشى قلوب مَنْ يسيرون فيه أوّل مرّة، رَهْبَة لها نشيجٌ لا يُسمَع، يفيض صاعداً من النقطة الأبعد والأعمق في الروح، ولا يهدأ إلا حين تُلامِس أصابعهم خشبَ الباب الضخم لكنيسة القيامة. حتّى إذا جاوزوا الباب، حفت بهم هالة القبّة العملاقة في السقف الشاهق، وجاءتهم ظِلالُ الأعمدة، وأنوارُ الشموع، وروائحُ البخور، وأصواتُ الأجراس، وهمسُ الذِّهب للحرير، والفضّة للمرمر، فيحملهم ذلك كله من مقام الرَّهْبَة، ويُلقي بهم في مقام الطمأنينة.. فإذا خاضوا في المكان، صاعدين الأدراج، ونازلين في الدهاليز، ومُوغِلِين في الأروقة وبين المحابس والمحاريب؛ نظرتْ إليهم وجوهُ القدِّيسين المرسومة في الجداريات الضخمة، وألقت عليهم السلام، إذاك تصير طمأنينتُهم مَسَرَّةً.

غادرتُ مع الصديقَيْن كنيسة القيامة، سائرين على طريق عقبة التكية، في اتِّجاه يكونُ فيه بابُ الحديد منفذَنا إلى الحَرَم القدسي.. في آخر السَّيْر، اعترضَنا حاجز جنود إسرائيليّيْن، كانوا أربعة، تحقّقوا من أننا مسلمون، وأن أعمارنا تفوق الأربعين، وما كانوا سيسمحون لنا بالمرور لولا ذلك، استغربتُ أوّل الأمر، لكن يُوسُف سيشرح لي السرّ، فدافعهم إلى منع غير المسلمين من دخول الحَرَم يبدو في ظاهره حراسة له، لكنه في الأصل نابع من معرفتهم أن مَنْ يدخله ويُحدِث فيه تخريباً لن يكون إلا مجنوناً من مجانين بني جِلْدتهم، فهم بحاجزهم لا يحمون الحَرَم، بل يحمون المجنون من مصيره المحتوم. وقد بدا واضحاً من أعلامهم التي يرفعونها فوق بعض البيوت أنهم كثيرون، وعلى حدّ تعبير يُوسُف وليديا أنهم يتكاثرون.

عبرنا الحاجز الإسرائيلي، وعلى بُعد خطوات قليلة، كان في انتظارنا حاجز آخر، غير مسلّح هذه المرّة، يتبع الأوقاف الأردنية التي يعود إليها الإشراف على الحَرَم. عبرناه إلى الباحة الفسيحة، فكان عبوراً من ضيِّق إلى سعة، ومن غبش إلى إشراق، ومن حَيْرة إلى وضوح. مشينا نحو أشجار السرو التي تحيط بالباحة، فتراءى لنا من خلالها ذهب القبّة المضلّعة المرفوعة على أقواس مُبلَّطة بالرخام الأبيض، مزخرفة بفسيفساء زرقاء وخضراء. في هذه اللحظة الأولى من مسافة الأمتار المعدودة، تُوغِل العين في التّأمّل، فينخطف خيالُ البال إلى زمن بعيد، عائداً أربعين سنة إلى الوراء. عشرات ومئات وألوف الصور التي انطبعت لهذا البناء المقدّس في ذاكرةِ عمرٍ كاملٍ تتراجع، ثمّ تتلاشى. تتراجع نهائياً أمام جلال الحقيقة الماثلة الآن.. ثمّ تتلاشى كَقُشَعْرِيْرَة باردة، سَرَتْ في أطرافِ البدن لثوانٍ.

خلعتُ نعلَيّ، وصعدتُ الدَّرج الممتدَّ نحو مسجد قبّة الصّخرة، في اللحظة ذاتها، كان أذان المغرب يرتفع، ومن على مقاعد حجرية، نهضتْ نسوة تتلفَّعن بالبياض إلى صلاتهنّ، ومن فضاء غير بعيد، كانت تتعالى أصوات أطفال يتراشقون كرة بأقدامهم، نداءات وضحكات كانت براءتها تتمازج مع نفحات المشهد الممتلئ

بالإيمان.. وقتها تراءى لمخيّلتي طيف راعي الغنم الذي من صحراء العرب، وقد جاء هنا ممتطياً دابَّته النّورانيّة، كان لا بدّ أن يأتي إلى هنا.. لم يكن ممكناً أن يكون هو كما هو، ثمّ لا يصل إلى هنا.. يعقد زمام دابّته عند صخرة، ثمّ يسير في موكب أنبيائي ليؤمّه في صلاة مَقدِسيّة، ستدرس رسالتُها في قلوب القرون اللاحقة من المؤمنين.

في القدس، رأيتُ محمّد ابن آمنة وعيسى ابن مريم وموسى ابن أُمّ موسى يدخلون من باب دمشق، يسيرون في درب الآلام، يدخلون الكنيسة العتيقة، فإذا بلغوا الدرج الواصل بين مسجد الصخرة والمسجد الأقصى، اقتسموا رغيفاً مغموساً في الزيت، ثمّ خلدوا إلى النوم، محمّد تحت الشجرة، وموسى قريباً من النافورة، وعيسى بينهما.

في القدس سرّ النُّسْغ الأوّل، ذاك الذي علَّم الأحجار قبل الناس أسرارَ التّماسك والصّمود والبقاء.

في القدس، تمنَّيت أن أكون حجراً، عساي أُنصِتُ لما يهمس به لحجرٍ حجرُ..

غادرتُ الحَرَم مع صديقَيَّ، عائدين من طريق غير التي جئْنا منها، خفاف الخطو والسمع، صامتين مُنصتين لهمهمات كائنات ليلية، كانت تطوف حول ضوء الفوانيس التي تجهد كي تُبدِّد قليلاً من كثير الغبش المعسعس في المكان.

عند باب الفندق، ودّعني الصديقان، بكلمات من القلب، شكرتُهما على الرفقة البهية، والجميل الذي طوَّقاني به لبقية العمر.

يُوسُف، أيّها الصديق الصَّفِيّ اللايُنسى في المدينة اللاتُوصَف.. شكراً لكَ.

ليديا، أيّتها المَقدِسيّة المذهِلة بنار التصميم في نظرات العين، تخالطها برودة الفولاذ في نبرات الصوت.. شكراً لكِ.

شكراً لكما.

قلتُها وشيَّعت انصرافهما بتلويحة ظلّت تتابعهما حتّى اختفيا عند المنعطف.

في البهو، وجدتُ رفاق المعرض من الضيوف العرب، المغاربة الثلاثة، والتُونُسيّان والجزائري والأردني، ألقيتُ تحية سريعة، وصعدتُ الدرج إلى الغرفة تاركاً باب المصعد المفتوح ينهشه الانتظار، صعدتُ مُثقَلاً بظلال المشاهد، وأصداء النداءات، وروائح الأزمنة، وأطياف الأنبياء.. دلفتُ إلى الغرفة، وحاولتُ أن أنام.

اليوم الخامس

مشهد ٤٣ / رام الله - نابلس- طولكرم

عند تمام الحادية عشرة صباحاً، كنتُ قد فرغتُ من فنجان القهوة الثالث والسيجارة الخامسة، في انتظار قدوم الباص الذي سيقلّني رفقة نداء يُونُس وزهير أبو شايب وحسن مريم إلى عنبتا. يرافقنا صديقُ العالمِ، الباسمُ دوماً، فلاح أبو الرُّب.

في مطالع الطريق نحو طولكرم، اعترضَنا حاجز إسرائيلي أوّل، أخذ منّا عبورُه ربع ساعة من الزمن، قضاها الجنود في تفحُّص الباص، وتفرُّس الوجوه، استأنفْنا بعدها السيرِ على طريق تلّيّ، تُرى من خلفه رام الله أسيرة مستلقية، تُطوِّق أقدامَها أغلالُ هذه الحواجز الكريهة.

على الطريق الذي كان يشقّ في صخر التلال الصغيرة أخاديد من الإسفلت، انطلقتْ نداء التي تعرف الطريق، وتحفظ مساراته في لَفْت انتباهنا إلى المستوطنات التي كانت تتناثر على رؤوس المرتفعات، وتتّخذ أسماء عبرانية، تتحايل على أصلها العربي، أسماء مكتوبة على لوحات تشوير معدنية، رأينا كثيراً منها وقد طالها التشطيب والكشط، كأنما يُرعبهم الحرف العربي، ويُشعِرهم أن يقينهم بأن الأرض صارت خالصة لهم هو يقين مزيّف، وأن الصراع لم ينته بعد، وكيف يكون قد انتهى، وعلى الطريق بيوت ومزارع في سفوح التلال وعلى رؤوسها، يُصرُّ أهلها على البقاء كالشوكة في حُلُوق المستوطنات التي تحيط بها من كل جانب، والحواجز التي تمنع أهلها من الحركة والتّنقّل، والتّحرّشات التي تتعرّض لها من قطعان المستوطنين المسلّحين بالبنادق وأساطير التناخ المهترئة؟!

في السّيّارة كان مرح السفر يغلب على الأجواء، حتّى إذا أشارت نداء إلى موقع عسكري للاحتلال مَبني على أطلال قرية فلسطينية كانت هنا، أو إذا شوهد من وراء النوافذ واحد من الغرباء الطارئين انقلب المرح فجأة إلى غصّة أليمة، تنقلنا في الآنِ والمكان من حال المقيم المستأنس إلى حال العابر المستوحش.

قبل الوصول إلى نابلس بقليل، وفي وهدة من الأرض تَحفّ الأشجار بجانبَيْها، هبّت نداء لتشير إلى اسم المكان الذي نمرّ منه الآن، "هون، هذا هو وادي عيون الحرامية".

مشهد ٤٤ / عزف منفرد في وادي الحرامية

الأرقام كلها أوتار غامضة في كمنجة هذه الواقعة، وضوء الفجر صريح كفايةً في تلك الليلة، والنهار الذي سيطلع بعد قليل سيكون لثالث الأيّام في ثالث الشهور، والفرع الأكبر في أمّ الشجرات يسند الجسد المختبئ بين الأوراق، وغصن صغير فيه يُسدِّد الرميَ للأصبع القابضة على زناد البندقية. ثلاثون رصاصة، وأحد عشر مُجَندلاً، وتسع إصابات.

خفّف السائق من سرعة الباص، فصارت عيوننا تدقّق في تفاصيل المكان، كأنها تتعقّب أطيافاً شاردة لشابّ فلسطيني مرّ من هنا، اسمه ثائر حمّاد، عمره اثنان وعشرون ربيعاً، من قرية سلواد الواقعة بين رام الله ونابلس، استيقظ صبيحة اليوم الثالث من شهر مارس (آذار) من العام ألفَيْن واثنَيْن، صلّى الفجر، وانطلق نحو التّلّة التي تطلّ على حاجز عسكري إسرائيلي في وادي الحرامية، صعد شجرة، وانتظر ساعة المناوبة بين الجنود، حين ظهر أوّلهم عالجه في مَقتل بواحدة من رصاصاته الثلاثين، ثمّ الثاني بثانية، والثالث بثالثة، فالرابع والخامس.. وحين وصلت فجأة سيّارة مَدَنية إلى المكان، ونزلت منها امرأة إسرائيلية مع طفلها تريد أن تستطلع ما يحدث، صرخ فيها، وأشار لها بالمغادرة حتّى لا يصيبها سوء، فمعركته اليوم نقية الأخلاق، لاذت المرأة وطفلها بالفرار، وعاد هو ليُكمِل معزوفة النار، يقنصهم واحداً بعد واحد، فيما تتطاير فوارغ خراطيشهم في كل اتّجاه ودون هدف، لم يتوقّف ثائر عن القنص إلا حين انفجر بيت النار في بندقيته القديمة التي تعود إلى زمن الحرب العالمية الثانية. حينها لم يجد بُدًّا من الانسحاب، وعاد إلى بيته، ليُكمِل نومه في مضجعه.

في صبيحة اليوم التالي، كان أنف الدولة النّوويّة المُستأسِدَة ممرَّغاً في التراب، ومخابراتها الرهيبة الصيت تلعق جرحها النازف، وتحاول أن تستوعب ما حدث. مَنْ يكون الفاعل؟ هل هو جندي قديم، يحتفظ ببارودته العتيقة؟ أم مُخرّب مدرّب على التسديد والقنص؟ من أين جاء؟ وكيف وصل إلى هنا؟ وأين اختفى؟

أمّا الثائر، فكان يستيقظ من نومته، ويُكمِل حياته على الإيقاع الذي كان قبل، ثلاثون شهراً مرّت على الواقعة قبل أن يساعدهم الحظّ الخائن على الوصول إلى تحديد هويّته.

أحد عشر مؤبّداً، يقضي منها ثائر ثلاثة عشر عاماً في معتقلات الاحتلال. لكن كل مَنْ سيمرّ من هنا، من وادي عيون الحرامية سيذكر ثائر.. سيذكره حاخامات إسرائيل كداود فلسطيني يردي خصمه العملاق دون أن ترتجف له جارحة، سيذكره قادة الاحتلال كلغز عسكري، يكسر قواعد المواجهة، ويُعدِّل ميزان الرعب، ستذكره المستوطِنة الإسرائيلية وطفلُها اليهودي الذي صار الآن رجلاً، كغاضبٍ عربي، لا يكره الناس، ولا يسطو على أحد، ولكنه إذا جاع يأكل لحم المغتصِبِ.

سيذكره أبناء شعبه كأمير في قوافل الثّوّار الأحياء والراحلين..

سيذكره الوادي الذي أنصت ذلك اليوم لعزفه المنفرد.

مشهد ٤٥ / حامل الروح، حامل البندقية

كان قد مرّ على رحلتنا زمنُ ساعةٍ ونصف حين وصلنا مشارف طولكرم. عند مدخلها اعترضَنا حاجز إسرائيلي آخر، على وجوه جنوده التّجهُّمُ العسكري إيّاه، وفي عيونهم التّوجّس المشوب بالخوف، كانوا ككل مَنْ رأيناهم من قبل، يحملون بنادق، لا تتناسب بأحجامها مع هيئاتهم، التي يبدون فيها كمراهقين، لم يبلغوا

الرشد. ولا يبدو حتّى أنهم قد اختاروا أن يكونوا هنا، أو أنهم يفهمون غايةَ ما من وجودهم، سوى غاية ساستهم لتركيع شعبٍ، خَبِرَ قبلَهم أباؤُهم، أنه شعبٌ لا يركع، لذلك يُسمع عنهم مراراً إصابتُهم بصنوف من الاكتئاب، تدفعهم إلى إتيان سلوكات عنيفة في حق العُزَّل من الأطفال والنساء والشيوخ، وتُلقِي بكثير منهم إلى إدمان المخدّرات، هروبا يائساً، من صراعٍ داخل أرواحهم المعذّبة بين الإنسان الحُرّ السّويّ، وآلة القتل العمياء الموجَّهة.

دخلنا المدينة من شرقها، مارّين بمحاذاة مخيّم نور شمس، على الشارع الرئيس الذي ينتهي إلى وسط المدينة، وتحديداً إلى الدَّوّار الذي يقع قبالته مبنى بلدية طولكرم، وهو مبنىً قديم موروث عن الحقبة العثمانية. سلكنا بعد ذلك من شارع صغير ضاق بما فيه من محلّات تجارية، وما يفرشه صغار الباعة من سلع وخضار. خلال دقائق، كنّا نقف أمام مركز المحافظة، حيث حظينا من مسؤوليها بضيافة قهوة وطبق خضروات. وحديث في عموم الثقافة والشِّعْر والكتاب، وفي خصوص ما يُعرف عن طولكرم من تفوُّق أبنائها الذين يحصلون في الامتحانات الوطنية على أعلى نِسَب النجاح، وبأعلى الدرجات، ثمّ عن العدد اللاّفت من براءات الاختراع المسجَّلة بأسماء أبناء المدينة وما يتبع لها من بلدات. تشعَّبَ الحديثُ، فصار مذاكرة حول بيوتات العلم المنسوبة إلى طولكرم، وأشهرها بيت الكرمي، وشاعره أبو سلمى عبد الكريم الكرمي (١٩٠٩-١٩٨٠). ولم يكن ممكناً أن يخلو حديث الشِّعْر هذا من ذِكْر شاعر، يحفظ له قرَّاء العربية مطلعَ قصيدة من عيون ما قيل في اقتران القول بالفعل، واجتماع الشهود والشهادة، فكانَ الشاعرَ الشاهدَ الشهيدَ.

سأحمل روحي على راحتي	وألقي بها في مهاوي الرّ
فإمّا حياةٌ تسرُّ الصديقَ	وإمّا مماتٌ يغيظ العدا

قالهما عبد الرحيم محمود (١٩١٣-١٩٤٨)، وبلغ بها الغاية من وجوده، بعد أن اختار خندقه، وحمل بندقيته طواعية، يدافع بها عن تراب أرضه، ويقاتل بها العصابات الصّهيونيّة، إنساناً حُرًّا سويًّاً، مؤمناً برسالته، مطمئنًّا إليها، مُلقِياً بروحه في الردى من أجلها، مُتوّجاً قصيدتَه بمصرعه.

إلى بيته الذي اتُّخِذ متحفاً، دعانا المضيفون إلى تناول الغذاء. بيتٌ من طابقَيْن، تمتدّ النظرة من إحدى شرفاته إلى ما يحيط به من جبال، وتلالٍ تغطّيها مزارع الخضراوات، وحقول الزيتون والعنب والرّمّان. أصبْنا غداءنا فيه، واستأنفْنا مسيرنا نحو عنبتا مسقط رأس الشاعر الشهيد.

مشهد ٤٦ / في مُتَّسعٍ من الشِّعْر

دقائق ووصلْناها، بلدةٌ صغيرة في مُتسّع من الأرض، بين تلالٍ خلفها جبالٌ، يستشرفها الناظرُ من بعيد، فكأنه ينظر إلى كتاب مفتوح، السطورُ فيه بيوت بيضاء، وصوامع الجوامع ألِفاتٌ في أواخر الكلمات. فإذا هو خاض في دروبها، تراءت له بيوتُ الطُّوب والحجر، كأنها أفعالُ يتنازعها ماضٍ من الزمان وحاضرٌ. أمّا الآتي، فتراه في عيون الناس الملأى باليقين، ولولاه ما بقوا هنا عاضّين على التُّراب. يملؤون من غَلَّاتِه بيادر القمح، وجِرارَ الزيت، وسِلالَ العنب.

توقّف الباصُ بنا عند مبنى النادي الثقافي لعنبتا، أين سيُقرأ الشِّعْرُ هذا المساء، عند بوّابة المبنى لم يكن هناك أكثر من شخصَيْن أو ثلاثة، ما عنى لنا من ظاهر الأمر أنّنا قد وصلنا أبكر ممّا يجب، وما إن دخلنا القاعة حتّى وجدنا المفاجأة الكبيرة في انتظارنا، فالقاعة غصّت بجمهورٍ، وصل إليها قبل الموعد، واحتلّ كراسيها التي فاق عددُها المائة. ومَنْ وصل متأخِّرا ظلَّ واقفاً في الخلف، التفتُّ إلى مرافقنا مدير الثقافة في المحافظة، أسأله عن عدد سكّان عنبتا، فأفادني بأنهم في حدود الثّمانيةَ آلاف. زاد الخبرُ من وقع المفاجأة. بلدة صغيرة تهدي للشِّعْر هذا الحضور كله، بهذا الوفاء، وهذا السخاء. وذاك التقدير الذي رأيناه يتجسّد إطراقاً في فضاء القاعة حين صعد الشعراء إلى منصّتهم.

بَسَطت نداء، في تقديمها للشعراء، سماءً من الكلمات المجنّحة، فتح فيها زهيرٌ دروباً لعُشبه الظّامئ، ومطره ذي الأسرار، وليله الظليلْ،(2) ثمّ تابعه حسن بِرؤاه الشّفيفة، وأنّاته العالية، وقابيله القتيلْ(3)، ونثرتُ بعدهما ما نشأ فوق الزَّهر من النَّدى الثَّقيل، وما افترس الحياةَ من جارحِ التّفاصيلْ(4).

لساعة ونصف، قرأنا وأنصتوا، وخلال ذلك، ما سمعنا وشوشةً أو رنينَ هاتف، وما رأينا أحداً التفت إلى أحد، أو غادر القاعة في غمرة القراءة. وبعد أن انتهينا صارت المنصَّة لهم، يحتفون بضيوفهم، ينثرون من فيض محبّتهم تذكاراً من بلدةٍ، في قلوب أهلها يقينٌ في تراب الأرض، ومُتَّسعٌ لسماء الشِّعْر.

مشهد ٤٧ / كنافة فلسطين وفلافلها

في رحلة العودة إلى رام الله، اشتدّت علينا وطأة متابعة الطريق، مخافة أن يكون شوط الإياب كسابقه، وفي غمرة حديثنا عمّا قد تستغرقه المسافة من زمن، وفيما الباص ينهش الطريق وسط نابلس؛ داهمتْنا رائحة نفَّاذة وناعمة في آنٍ واحد، بَيِّنٌ فيها طعمُ السُّكَّر المحمَّص، والجُبْنُ الملفوح بالنار، فعرفنا أنها الكنافة، وقفنا عند أوّل محل يبيعها، اصطففنا أمام الحلواني، ثمّ انفرد كل واحد منّا بطبقه، وطفق يأكل منه على مهل، فاستطعام الكنافة يستوجب أناةً في المضغ، كما في الازدراد، فبها صُنِعتْ، وبها تُؤكَل. وبها تُروى حكايتُها..

فعلى نحوٍ ما، تصير عجينةُ السميد والدقيق بالحليب وماء الزهر خيوطاً دقيقة متماسكة كأنها جدائل كائنٍ خرافيّ، تُمَدَّدُ على صينية ساحت فوقها قطعة سَمْنٍ قُدِّمَتْ قرباناً يَقِي العجينةَ من لسعة النار والحديد. ثمّ يُؤتى بِجُبْنة، ظلّ الماء

يداهنها ليوم وليلة، فلم يفارقها حتّى نزع عنها أجاجَها الأوّل، ليُعِدَّها لِقِرانها المنتظر قبل أن تمتحنه النار. فإذا استوى العاشقان، والتحم ابن القمح وبنت الحليب، صُبَّ عليهما إناء من قَطْرٍ عذب متلألئ، كان من قبل ماءً وسُكَّراً، مُزجَا، فتنازعا الهَيولة لوهلة، ثمّ توافقا على مقام واحد في الميوعة الحلوة، حتّى إذا زِيدَ ماء الليمون، وامتزج بهما، أضفى عليهما لطافةَ طعمٍ، تصبح به الحلاوةُ مَزازةً ناعمة.

غادرنا المكان، وفي فم كل واحد منّا صبغة من كنافة نابلس، وفي باله صيغة لحكايتها، حكاية عشق متوهّج بالحمرة مشبوب بالنار.

عند أوّل دخولنا رام الله، داهمتنا رائحة أشدّ حدّة من تلك النابلسية، رائحةً لم تكن خفية عن زهير، الذي ما إن اشتمّها حتّى صاح: لازم ناكل فلافل، يا شباب..!

للفلافل صبغة متعدّدة في صيغة موحّدة، هي خلطة جُمِعَ فيها ما ينبت تحت الأرض ويبقى فيها، وما ينبت تحتها ويخرج منها، وما يخرج منها ويعلو عليها. هي حمُّصٌ، وبصلٌ، وثومٌ، وفلفلٌ، وبقدونسٌ، ونعناعٌ، جُمعوا في صعيد واحد، ودُقُّوا بمهراس، ثمّ خُلطوا مِلحاً وكَمُّوناً وبَهارات أخرى، وسُقُوا زيتاً. حتّى صار الجمعُ مفرداً. ثمّ رُجِعُ إلى المفرد، فجُعِلَ مُدَوَّراً مُكَوَّرا، ليُلقى به في غَلْوة الزيتِ، تُنْضِجُه بِصَهْدِها حدَّ الفوران، فيخرج منها أشدَّ بأساً وأكملَ تماسكاً.

ناظراً إلى مقلاة أبي العبد، وفي فمي لقمة فلافل قضمتُها من قرص خبز به سلطة وطماطم ومُخلَّلات، كنتُ أحدِّث نفسي عن وجوه الشبه بين الناس وما يأكلون، مفكِّراً في الذين سرقوا الأرض، لِمَ يُستغرَبُ أن يسرقوا الماء والأسماء، ويسرقوا الأرقام والأنغام.. ولا يستثنون الفلافل؟!

اليوم السادس

مشهد ٤٨/ اللّصّ هناك

على الموعد الذي رتّبتْه لنا بتول مع سائق باص؛ انطلقت رحلتنا ظهراً على طريق التفافي جنوبي، يضاعف المسافة بين رام الله والخليل، ويجعل خمسة وثلاثين كيلومتراً، كأنها مائة أو أكثر، لكنه لا يستطيع أن يمنع العين من أن تسرح بعيداً، وترى مقداراً جليلاً من الجمال الذي تتّشح به هضاب الأرض وتلالها، ويزداد جلالاً كلّما كانت الرؤية من ارتفاعات جبلية، تحرّر الطائر السّرّيّ المسجون في دواخلنا.

عندما بدت حقول العنب تتراءى لنا على جانبَي الطريق؛ أدركنا أننا نقترب من الوصول. وحين وصلنا؛ وجدنا في انتظارنا خليلياً أصيلاً، سيكون دليلنا في الجولة. دخلنا البلدة العتيقة، حيث السَّيْر في الحارات، يشبه حُلْم يقظة، ينخطف به الخيال، فتُرى فيه عهودٌ قديمة على حجارة الأرصفة والأسوار، وفي عمارة البيوت والمباني. لكن الحُلْم لا يلبث أن يصبح كابوساً بعد حين، ونحن في قلب البلدة العتيقة، حيث تنتصب أبراج أسطوانية من الإسمنت المسلّح، ملفوفة بالأسلاك الشائكة، يتحصّن فيها جنود الاحتلال مدجَّجين ببنادق أوتوماتيكية مزوَّدة بمناظير.

- "هم أكثر من ١٠٠٠ جندي يحرسون قطيعاً من ١٢٠ مستوطناً. في مدينة يسكنها أكثر من ٢٠٠ ألف فلسطيني." هكذا تحدّث دليلنا.

كنّا نرقب هذا المشهد من وسط ساحةٍ، تصطفّ حولها محلّات مقفَلة الأبواب، أصحابها تجّار وحِرَفِيّون هجروا المكان لِبَوار تجارتهم، بسبب مضايقات الجنود، وتحرُّش العُتاة من متطرّفي المستوطنين. كنّا أربعة تبدو عليهم ملامح الزائرين القادمين من بعيد، خامسُنا دليلُنا. رفعْنا رؤوسنا نحو أحد الأبراج، فأطلّ علينا منه جندي إسرائيلي وهو يصوّب نظراته وسلاحه نحو الواقفين في الساحة، سلقتْه نظراتنا، وبدا كأنه يتساءل: مَنْ أنتم؟ ما الذي جاء بكم إلى هنا؟ ثمّ بدا كأنه استشعر وفَهِمَ ما كان يدور بيننا وبين دليلنا من حديث:

- انظروا هناك؛.. هل ترونه؟ إنه هناك، اللّصّ حارسُ اللّصوص.. اللّصّ العابر في البرج العابر.

مرّت دقيقة زمن من معركة التحديق المتبادل والقصف بالنظرات. توارى بعدها اللّصّ في جحره.. ولم يعد يظهر من أثر على وجوده سوى فُوَّهَة سلاحه.. اختفى عن أنظارنا وهو يعرف في قرارة نفسه أنه ليس أكثر من لصّ.

مشهد ٤٩/ صغير وجبّار

قادنا دليلنا من جديد بين الأزقّة، متوقّفا بنا عند ما تبقّى من المحلّات التي تعرض منتوجات خليلية من مصنوعات الخشب والزجاج والفخّار، وأخرى تبيع حلويات، يبرع فيها أهل الخليل من جُلْقُوْم وشعرية وكرابيج الحلب، خلال ذلك استوقفنا شيخ سبعيني، فتبادل معه دليلُنا حديثاً قصيراً، حدّثه فيه عنّا، أمّا نحن، فتكرّر انتباهنا في هذه الوقفة إلى أمر طريف، إذ كلّما التقى فلسطيني بفلسطيني للمرّة الأولى وتكون أنتَ ثالثهما، يبادر أحدهما بسؤال الآخر: من وين أنت؟ من بلدة (كذا) قضاء (كذا)، من أيّ بيت؟ من بيت فلان. فجواب التعريف بالبلد والعشيرة يبدو لكَ طبعياً أوّل الأمر، إلى أن تفهم من سياق المحاورة أن البلد المقصود هو بلد أحدهما قبل النكبة (١٩٤٨).. ووقتئذ تفهم أن كل فلسطيني مهما تبلغ حداثة سنّه، وتأخُّر سنة ميلاده عن سنة النكبة، ومكان مولده داخل فلسطين أو في أيّة بقعة أخرى من العالم؛ فهو يُعرِّف نفسه دائماً ببلدة آبائه التي كانوا فيها قبل أن تطردهم منها العصابات الصهيونية..

هي الذاكرة المحتفظة بجذور الحكاية، والمشبَعة بحلم العودة ضدًّا على الاستراتيجية الصهيونية المراهنة على وَهْم مَنْ قال: "إن الكبار سيموتون، وإن الصغار سينسون".

استأنفنا السير، إلى أن توقّف بنا الدليل عند مبنى قديم، يعود زمن إنشائه إلى العصر الأيُّوبيّ، هو التكية الإبراهيمية، نسبة إلى مقام النّبيّ إبراهيم. وقد اتُّخِذت مطبخاً، يُقدِّم الأكل للفقراء، (حتّى لا يبقى جائع واحد في الخليل).

من التكية سرنا في أزقّة، كان بعضها ينتهي بحواجز عليها جنود الاحتلال، وبعض آخر ينتهي بشبابيك حديدية، وأسلاك شائكة، ترتفع أمتاراً، لتُغلق الطريق في وجه المارّة من السّكّان، في مشهد صادم، يُبين إلى أيِّ حدٍّ مزَّق الاحتلال أوصالَ المدينة العتيقة، سعياً منه إلى تمزيق شعور السّكّان بحيازة المكان، والانتماء إليه. وتفتيت إرادة البقاء لديهم، مع تقديم عروض مغرية لدفعهم إلى التّخلّي عن ممتلكاتهم مقابل أثمان باهظة. فهل نجح؟

ظلّ السؤال الصامت يتردّد في البال، إلى وصلْنا أمام بوّابة الحاجز الذي يضعه جيش الاحتلال في الطريق نحو الحَرَم الإبراهيمي بالخليل، كان الجندي المدجّج بالسلاح والعجرفة يفحصنا واحداً واحداً، فيما الفتى الفلسطيني خلفنا، يقذف كُرته نحو الحائط، ويصيح عليه: "افتح لهم البوّابة، يا واطي".

صحيحٌ، أن الكبار ماتوا، لكن الصغار من سلالة الجبّارين لم ينسوا، وخيّبوا أمل الاحتلال في تمزيق الانتماء إلى المكان.

زرنا من الحَرَم الإبراهيمي نصفه أو أقلَّ من النصف، هو ما سَلِمَ للفلسطينيّيْن من مسجدهم، بعدما استولى اليهود على نصفه، ووضعوا ستاراً فولاذياً، يخفي ما سرقوه، هم اللصوص مرّة أخرى، هم اللصوص دائماً.

صلَّى منّا منْ صَلَّى، وتأمَّلَ منْ تأمَّل، بعدما تلمّسنا الأبنوس العتيق في منبر صلاح الدِّين، ونظرنا من خلف الشبابيك إلى العتمة داخل مراقد الأنبياء

وزوجاتهم، ثمّ انصرفنا من المكان، نطأ السّجّاد بأقدام مُتهيِّبَة، تكاد تتحسّس طراوةَ الدّم الذي سال هنا منذ أكثر من عشرين سنة.. دمٌ سفحه متطرِّفٌ، جاء إلى هذه الأرض من بعيد، جاءها من بروكلين، وأقام في المستوطنة التي ابتلعت آلاف الدونمات من ريف الخليل، يتحيَّن فرصةً، حتّى وجدها في يوم جمعةٍ من جُمَعِ رمضانَ في العام ١٩٩٤، فتسلَّل إلى المسجد فجراً، وأطلق نَار رشّاشه على ظهور المُصلِّين.

مشهد ٥٠ العبور من بيت لحم

في طريق العودة، اقترح علينا السائق أن نعبر من مدينة مَنْ أهدى لحمَه لمحبّيه خبزاً، وسقاهم دمَه نبيذاً. من بيت لحم عبرْنا، من ساحة في قلبها، يقابل فيها مسجدٌ كنيسةً، من هذا يُنشَد أذان، ومن تلك تُقرَع أجراس. وقريباً منهما يحيا الناس حياتهم، يزيّنون بيوتهم ودكاكينهم بعَلَم الوطن، فلا تُميِّز فيهم بين مُحمَّديّ ويَسوعيّ.

دخلْنا كنيسة المهد، وقفْنا أمام مذبحها المقدّس، وتجوّلْنا في الأركان المزيّنة بلوحات الفسيفساء، وأيقونات الذهب والبرونز والقناديل المضاءة، ونزلْنا سرداباً يُوصِل إلى مغارة الميلاد، حيث تتعتَّق عشرون قرناً كاملة من الإيمان المسيحي.

تجوّلنا في الأنحاء، اشترى الرفاق تذكارات، واشتريتُ أنا حقيبة جديدة، وهدية لأُمّي، ثمّ عُدنا جميعاً نسأل عن مطعم غير بعيد، نعالج فيه جوع الظهيرة قبل أن نأخذ في طريق الرجوع إلى رام الله.

مشهد ٥١/ غزّة الممنوعة الممتنعة

كسائر الأيّام التي كنتُ أعود فيها إلى الفندق، لأجد بهوَه وقد صار صالوناً أدبيًّا، يتحلّق فيه رفاق الرحلة من الشعراء والكتّاب والقائمين على المعرض. عدتُ في هذا المساء الأخير، غير أني هذه المرّة أخذتُ مكاناً بينهم، عَلِّي أُشتِّت في حضورهم انتباهَ الحواسّ إلى لوعةِ البَيْن القريب الكئيب، ففي غدٍ أغادر، ويغادر مثلي كثيرون.

ظلّ الجمع ساهرين. يروي كل واحد ما سمع ورأى، وما جمعتْه ذاكرته من مشاهدات وصور، وما عَنَّ لباله من خيالات وأفكار. ولم نتفرّق إلا في ساعة قريبة من الفجر، دخلتُ بعدها الغرفة، وفتحتُ النت، لأجد كمًّا هائلاً من الرسائل التي سهوتُ عنها خلال الأيّام الماضية، كانت إحداها من صديق غزّاويّ عَلِمَ من صفحات أصدقاء مشتركين بوجودي في فلسطين لزيارة المعرض، فكتب عبارة ترحاب غامر، أنهاها بجملة حارقة:

"نيالك، يا ابن صديق.. مرحباً بكَ في فلسطين، كان أملي أجي المعرض، ونلتقي، لكن الاحتلال سكَّر علينا المعبر، ورجعْنا من وين جينا."

أسعدتْني التّحيّة أوّل الأمر، ثمّ عادت لتُوجعَني من حيث أشعرتْني بالغيظ، غيظٍ كالذي تُحدِثه فينا خسارات الأقدار السوداء الساخرة. كأني أخذتُ نصيباً، لا يحقّ

لي التّملَي به إلا برؤية أهله، يسبقونني إليه. أيّ شعورٍ خفيّ في قلب غزّاويّ يرى واحداً مثلي قد وصل من بعيد، بينما حُرم هو الوصولَ إليه من مقربة شديدة!!

غزّة جناح الوطن المقتلَع، الممنوع والممتنِع، كيف كنتُ سأراها، لو قُدِّر لي العبور إليها؟

البحر والشاطئ والمراكب والصمود، الحصار والديار والحطام والصمود، الكبار والصغار والأيتام والصمود، الشوارع والمصارع والمواجع والصمود، الشُّهداءُ والشُّهداءُ والشُّهداءُ والصمود.

اليوم السابع

المشهد الأخير

في صبيحة اليوم السابع، كان الجميع مُبكِّرين قد أعدّوا أنفسهم لرحلة العودة إلى أريحا، ومنها إلى المعبر. كنّا تسعة في الباص، فلسطيني من الكويت، وأردني، وتُونُسي، وجزائريان، وأربعة مغاربة، والصمتُ عَاشِرُنا، لاذعاً، حارقاً، يُحشرِج الأنفاس، يُجفِّف الريقَ في الحُلُوق، ولا كلمات. شعور فظيع بِيُتْمٍ مؤلم.

وصلْنا حاجزاً إسرائيلياً، صعدتْ فيه إلى باصنا مُجنَّدة سلَّمتْنا جوازاتنا بعد أن فحصتها، ثمّ سألت كل واحد منّا باسمه: (... معك سلاخ؟). حرّك كل واحد منّا رأسه بالنفي. وفي رأسه تتطاير شظايا سؤالها (لو كان معنا سلاح.. لو كان مع الذين كانوا قبلنا سلاح.. لو لم يغشّ الذين حكموا الذين قبلنا في السلاح..).

أَكملَ الباص طريقَه تحت شمس ملتهبة نحو محطّة المعبر، كانت إجراءات المغادرة أيسر كثيراً من سابقتها، أتممناها، وانتظرنا ساعَتَيْن، إلى أن وصل الباص الذي سيقلّنا إلى الحدود الأردنية.

عندما عبرنا الجسر كان كل شيء قد توارى خلفنا، الأرض والسماء والهواء والبهاء.. ولم يتبقّ فينا غير الخَوَاء، تُحلِّق فيه فكرة وحيدة.

المشهد ما بعد الأخير / معنى أن تفكّر في فلسطين

فلسطين فكرة، فكرة تنمو في القلب قبل أن تُزهِر في العقل، وليس شرطاً أن يكون حاملُها فلسطينياً أو عربياً. لأنها فكرة الإنسان التي تمتحن انتماء صاحبها إلى الإنسان، الفكرة التي تجعله مؤمناً بالأخلاق قبل أن يكون مؤمناً بالخالق. مؤمناً بالعدل في وجه الظلم، بالاختيار في وجه الإكراه، بالصمود في وجه الإخضاع، بالسواسية في وجه العنصرية، بالحُرّيّة في وجه العبودية والاستبداد، بالحياة في وجه الموت.

إن الذين جاؤوا من الأصقاع البعيدة والسياقات المختلفة، لينتصروا لفلسطين؛ إنما كانوا ينتصرون للفكرة، للإنسان فيهم، ولو لم يفعلوا، لكانوا قد فقدوا إيمانهم بأنفسهم، والجدوى من وجودهم. ولهذا السبب جاءت الفكرة بكثيرين منهم إلى فلسطين للنضال من أجلها. ولو كان الثمن حياتهم.. أسماء كثيرة يملأ سردُها كتاباً.

باتريك أوغريللو، تسويوشي أوكادايرا، ياسو يوكي ياسودا، فرونسواز كيستمان، فيتوريو أريغوني، رفائيل تشيرللو، جيمس ميللر، توم هورندال، راشيل كوري..

والكتاب مفتوح، لا صفحة أخيرة فيه، حتّى تنتصر الفكرة أو تحلَّ القيامة، ويموت الجميع.

فلسطين فكرة وُلدَت لتقاوم لَوْثَة، لَوْثَة في صورة فكرة، مقيتة وعنصرية ومجرمة. لم يتورّع أصحابها منذ وصلوا من جهات العالم الأربع عن ذَبْح الأطفال والنساء وهَدْم البيوت واجتثاث الأشجار ونَبْش القبور وتسميم المياه... أيّ بشر هذا الذي يتحلّل من الأخلاق كلها، ويفعل ذلك وهو مُوقِن أنه يفعله لقاءَ وعدٍ أعطاه له ربٌّ صهيوني، فضَّله على بقية البشر، وسيجعله في النهاية سيِّدا على الشعوب؟! أو يفعل ذلك، ليُحقّق كسباً رأسمالياً، يحشد له المال والدِّين والأساطير، ليستولي على ممتلكات الآخرين وخيراتهم بالقوّة، ثمّ يبيعها لهم مرّة أخرى، ليربح مَرَّتَيْن؟!

الفكرة في مواجهة اللَّوْثَة، والتّاريخ أثبت أن اللَّوْثَة لم تكسب الصِّراع رغم الفرق المهول بينهما في وسائل القوّة، الفرق الذي لا يمكن قياس مداه الفاصل بين الحجر والقنبلة الفوسفورية، وبين رصاص الرَّشَّاش والقنبلة النّوويّة، ولأنّ أصحاب اللَّوْثَة يعرفون ذلك، فهم يعرفون معه أن لَوْثَتهم لن تنتصر إلاّ حين تنجح بدفع الفكرة إلى التَّحلُّل والتَّفسُّخ والتلاشي التّدريجيّ. ولهذه الغاية، فهم يسلكون كل السُّبُل البطيئة السرعة، والطويلة الأمد، والمدروسة المراحل، لتحقيق الغاية والانتهاء بالفكرة إلى التَّمزُّق من الدَّاخل، فتَحُلّ اللَّوْثَةُ محلَّها، وتسكن أرضَها، وهذا أصل صيغة وجودها كَلَوْثَة تحوّلت إلى دولة استيطانية، اقتَلَعت بالقوّة والإجرام شعباً من أرضه، وأحلَّتْ مكانه جموعاً حاقدة وحالمة ومخدوعة، جمعتْها من الآفاق، وأتتْ بها إلى هنا.

في المقابل، تنجح الفكرة في الصمود والبقاء والانتصار؛ متى تماسكت كفكرة إنسانٍ يقف من نفسه ومن العالم موقفاً أخلاقياً، وحين يفعل، يصبح فلسطينياً بالقوّة، فإذا انتصر للقضية بموقف ما؛ صار فلسطينياً بالقوّة والفعل.

في فلسطين، تتعلّم أن تكون فلسطينياً، وهو ليس حصراً ذاك المولود على أرضها أو المنتسب إليها بالانتماء الوطني، بل هو كل حامل لفكرة الإنسان.

حين تدخل إلى فلسطين (الأرض والشعب والفكرة)، تبدأ من فوركَ في التّعلّم منها، تتعلّم منها أشياء جديدة، تدفعكَ إلى التفكير في حياتكَ قبل أن تصلها، وفيها وأنتَ فيها، وأكثر معنى تُعلِّمكَ إيّاه هو (التماسك)، وبدونه تصبح قابلاً للتّحلّل والتلاشي، حتّى الإسرائيليّيْن أنفسهم تعلّموا منها ذلك، تعلّموا من عناد شعبها، وصقلوا به عناداً لهم.

فيا أيّها الفلسطينيون - من أهلها أو حاملي فكرتها - أنتُم حُماة المعنى في وجدانها، أنتُم حُرّاس الجدوى من وجودها، فاتَّحِدُوا وانتصِرُوا.

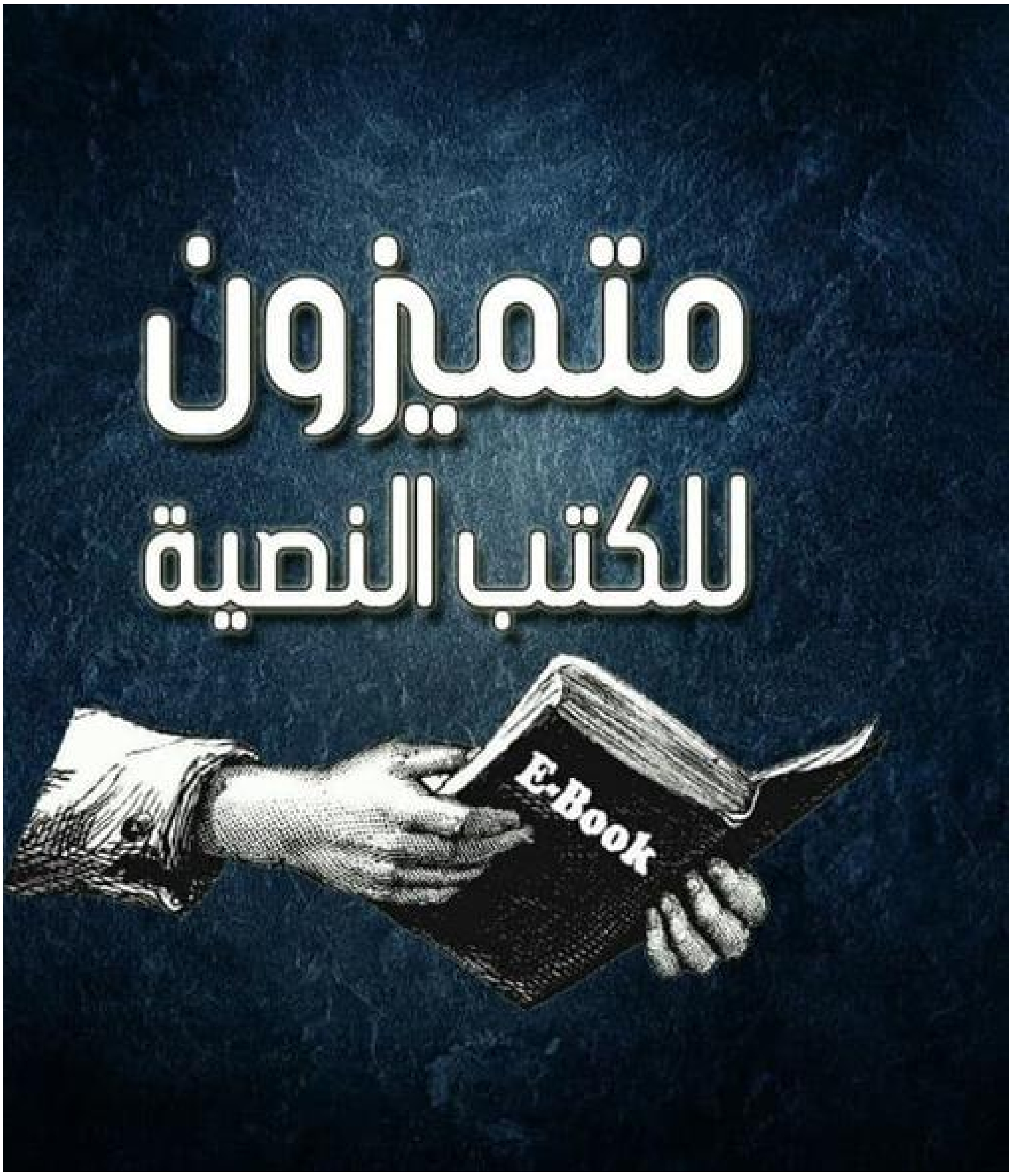
متميزون
للكتب النصية
E-Book

لينك الانضمام الى الجروب – Group Link

لينك القنـــــاة – Link

الفهرس..

اليوم الأوّل

مشهد ١ / أُفتِّتُ الوقتَ، وتنتظرني الحقيبةُ

مشهد ٢ / ذاهب إلى فلسطين

مشهد ٣/ عبور في عمّان

مشهد ٤/ يوم مقداره سبعون سنة

مشهد ٥/ على مسافة الصفر

مشهد ٦ / زمن المحطّة

مشهد ٧ / أعطاب، وأعطاب مضادّة

مشهد ٨ / عناد بعناد، وعطب بعطب

مشهد ٩ / يكذبون يكذبون

مشهد ١٠ / أكثر من مشكلة واحدة

مشهد ١١ / ماتت الحقيبة

مشهد ١٢ / حديث ربّ الجنود

مشهد ١٣ / مضافة السجين

مشهد ١٤ / ما فعله المعبر، وأكملتْه المستوطنة

مشهد ١٥ / جلالة الاسم، ورائحة الحياة

مشهد ١٦/ وحدانية المرّة الأولى

مشهد ١٧ / حليب الأرض

مشهد ١٨ / من زاوية الرؤية الآمنة

مشهد ١٩/ على خيط مسحور

مشهد ٢٠/ وعليه.. ولا يمكن

اليوم الثاني

مشهد ٢١ خَرَسانة وزهور

مشهد ٢٢/ أخو المستحيل..

مشهد ٢٣/ النسر في الزنزانة.. النسر في السماء

مشهد ٢٤/ الـ٤٨ - عـــين وطن

مشهد ٢٥/ أرض الموسيقا

مشهد ٢٦/ صوتٌ من القلبِ، جرحٌ في التّراب

اليوم الثالث

مشهد ٢٧/ كتاب الولد الفلسطيني

مشهد ٢٨/ صرخة في مرآة

مشهد ٢٩/ دموع محرّرة

مشهد ٣٠/ رصاص حَيّ، وأشعار لا تموت

مشهد ٣١/ "لأن الكبار كلهم كانوا ذات يوم أطفالاً"

مشهد ٣٢/ لذّة ومتعتان وثلاث غنائم وديوان شِعْر.

اليوم الرابع

مشهد ٣٣ / فرح الماء

مشهد ٣٤ / الباسط يُمناه

مشهد ٣٥/ انشراح وأخواتها

مشهد ٣٦ / باقون ما بقيت الحياة

مشهد ٣٧ / سلمى والبحر

مشهد ٣٨ / زجاج وفولاذ

مشهد ٣٩ / "الأرض بتتكلّم عربي"

مشهد ٤٠ / سور القدس الشاهق

مشهد ٤١ / روائح وأرواح.

مشهد ٤٢ / ليت الفتى في القدس حجرُ

اليوم الخامس

مشهد ٤٣ / رام الله - نابلس - طولكرم

مشهد ٤٤ / عزف منفرد في وادي الحرامية

مشهد ٤٥ / حامل الروح، حامل البندقية

مشهد ٤٦ / في مُتَّسعٍ من الشِّعْر

مشهد ٤٧ / كنافة فلسطين وفلافلها

اليوم السادس

مشهد ٤٨/ اللصّ هناك

مشهد ٤٩/صغير وجبّار

مشهد ٥٠ العبور من بيت لحم

مشهد ٥١/ غزّة الممنوعة الممتنعة

اليوم السابع

المشهد الأخير

المشهد ما بعد الأخير / معنى أن تفكّر في فلسطين

Notes

[←1]

1) (تُعذِّبنا) تحريف من ذاكرتي، والذي في الديوان (تُشرِّدُنا).

[←2]

2) قرأ زهير نصوصاً من مجموعاته الشِّعْرِيّة: "سيرة العشب"، و"مطر سرّيّ"، و"ظلّ الليل".

[←3]

3) قرأ حسن مريم نصوصاً من مجموعته الشِّعْرِيّة: "رؤى قابيل".

[←4]

4) قرأت نصوصاً من مجموعتَي الشِّعْرِيَّتَيْن "مثقلاً بالندى.." و"تفاصيل تفترس الحياة".